سورة الكهف

أهدافها { الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما: لينذر بأسا شديدا من لدنه. ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات. أن لهم أجرا حسنا. الخ

مواعظ حكم آداب عالية
إيمان فضائل اجتماع
دستور شامل لسعادة الإنسانية ومجدها

بقلم عبد الحميد حجازى
كاتب مقرأة السيدة زينب

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

obeikandl.com

فهرس الكتاب

obeikandl.com

فهـــرس

الموضوع	صفحة
الاهداء	٢
مقدمة	٣
الباعث على وضع هذا الكتاب	٦
حمد الله تعالى ذاته	٧
بعض صفات الرسول	٧
صفة القرآن	١٠
إنذار عام	١١
الشق الأول من مهمة الرسول	١٢
« الثانى « «	١٣
جهل المنذرين بما نسبوه إلى الله	١٧
شناعة ما تفوهوا به	١٨
تصوير حالة الرسول إزاء جموح المشركين	١٨
تصوير حالة الدنيا	٢٠
المصير المحتوم للأرض الدنيوية	٢٢
آيات أصحاب الكهف	٢٣
إيثار المؤمنين دينهم الخ	٢٤
تعطش المؤمنين إلى طلب المزيد من الرشد	٢٥
إسباغ نعم الله على الخاضعين لعزته	٢٥
تجلى قدرة الله	٢٦
تفضل الإله باطلاع عباده على قصة أهل الكهف	٢٧
وصف عقيدتهم	٢٩
تقرير أن هدى المؤمنين فى ازدياد	٣٠
تتابع النعم على المؤمنين	٣٠
الأسباب التى من أجلها استحق أصحاب الكهف التكريم	٣١
قوة إيمانهم وتسفيههم المشركين	٣٢
تهكمهم بمن يتخذوا آلهة من دون الله	٣٣
تدليلهم على أن المشركين لا يعتمدون على حجة	٣٣
عودهم بالتأنيب على المشركين	٣٤
إيثار المؤمنين اعتزال من يخالفون عقيدة التوحيد	٣٥
الدعوى إلى تجنب الأشرار	٣٥

الموضوع	صفحة
حماية الله للذين يستجيبون له	٣٦
حال الفتية فى الكهف	٣٦
إلفات إلى ما انطوت عليه آيات	
أهل الكهف من قدرة الله	٣٧
تقرير أن الهادى هو الله وحده	٤٢
نماذج من آثار قدرة الله	٣٣
إحاطة الهيبة بأصحاب الكهف	٤٥
هيمنة القدرة على شئون الحياة	٤٧
البحث فى شأنهم بعد اليقظة	٤٨
تفويض جميع الأمور إلى الله	٤٨
تقرير أن التزود لا ينافى التوكل	٤٩
تجنب أصحاب الكهف المسالك	
التى تسىء إلى عقائدهم	٤٩
كشف أمرهم الخ	٥٠
اختلاف الرأى فى شأنهم	٥٠
اتخاذ قبورهم رمزاً للعبادة	٥٢
الاختلاف فى عددهم	٥٣
بيان أسمائهم	٥٤
النهى عن التعمق فى المجادلة	
فيهم	٥٥
آيات توضح حقيقة ماخفى	
أمرهم	٥٦
تقرير أن شيئاً لا يتم بغير	
مشيئة الله	٥٩
علاج من نفس الاستثناء	٦٠
مطالبة العباد بالتطلع دائماً	
إلى هداية الله المتجددة	٦١
بيان المدة التى مكثها أهل الكهف	٦٢
إلفات الناس إلى أن الله وحده	
غيب السموات والأرض	٦٣
من صفات الوحدانية	٦٤
إلفات الناس إلى أن لا مفر	
لهم من خالقهم	٦٥
الأسباب الموجبة للبشارة	٦٦
تقرير أن المصير إليه تعالى	٦٦
منزلة الموحدين عند الله	٦٧
تقرير أن المؤمنين هم المثل الأعلى	
من علامات التأثر بالدنيا	٦٨
مصاحبة الأشرار	٦٩
الحكم على الأشرار بالغفلة الخ	٧٠

الموضوع	صفحة
الدرس الثالث ـ ترميم الجدار	
حرض البخل ، وصفاته الذميمة	١٣٧
سمو أخلاق الأنبياء	١٣٩
اتجاه رأى موسى نحو تطبيق	
قاعدة مقابلة الصنيع بمثله	١٤٠
نهاية صحبة موسى والخضر	١٤١
أهداف الوقائع الثلاث	١٤٢
تقرير أن عمل الخضر ليس	
صادراً عن هوى	١٤٤
آيات ذى القرنين ـ عظات	
التاريخ	١٤٦
تحليل نفسية المؤمن الذى لم	
يطغه ملك الدنيا	١٥٠
جهاد ذو القرنين	١٥٢
الدواعى المفضية إلى التعذيب	
فى الحياتين	١٥٤
من مظاهر التمكين لذى	
القرنين الخ	١٥٥
عدم اغترار ذو القرنين	
بالقوة المادية	١٥٩

الموضوع	صفحة
تقرير أن قوى البشر أداة	
لتنفيذ إرادة الله تعالى	١٦٠
تدليل ذو القرنين على أن	
شأنا من شئون البشر لا يتم	
إلا برحمة الله	١٦٢
البعث العام ـ العالم فى الآخرة	١٦٤
حالة المنذرين بعد البعث	
ومصيرهم	١٦٥
تقرير أن من أخبث العوامل	
المفضية إلى العذاب تأليه العباد	١٦٧
بيان من يضفى على عمله القبيح	
صفة الحسن	١٦٨
مصير من هذا شأنهم	١٧١
منزلة المبشرين فى الآخرة	١٧٢
آيات الختام ـ وصف كلمات	
الله	١٧٤
تقرير أن مهمة الرسل	
الدعوى إلى الوحدانية	
والعمل الصالح	١٧٥

obeikandl.com

﴿ وقع ﴾

فى السطر ٢	الصفحة	١٠٩	فيـــذوقوا بدون واو	خطأ
وفى « ٧	«	١٤٥	دارة بزيادة ألف بعد الراء	«
وفى « ٢٢	«	١٦٩	بلغات بباء بدل التاء	«

وأيضاً وقعت أخطاء فى ثنايا الطبع من هذا القبيل لا تغيب على فطنة القارئ . وقد اكتفينا بهذه الإشارة للتنبيه

obeikandl.com

obeikandl.com

سورة الكهف

أهدافها

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما: لينذر بأسا شديدا من لدنه. ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات. أن لهم أجرا حسنا. الخ

مواعظ حكم آداب عالية
إيمان فضائل اجتماع
وسور شامل لسمو الانسانية ومجدها

بقلم عبد الحميد جحازي
كاتب مقرأة السيدة زينب

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

ادارة الطباعة والمكتبة المنيرية
لأصحابها
أولاد محمد منير الدمشقي السلفي
بشارع الشيخ محمد عبده درب الأتراك رقم ١ خلف الجامع الأزهر

obeikandl.com

إلى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

الشيخ « عبد الله المراغى »

لقد درج المؤلفون على اختيار شخصيات بارزة فى الفن الذى يطرقونه ليهدوا إليهم مؤلفاتهم ، سعياً وراء اكتساب ثقة الناس بما ينشرون عليهم . وإنه لتنازل كريم من هذه الشخصيات تقبل الإهداء ، وتواضع فيه معنى المساعدة والعون ، يستحقون عليه الشكر والثناء .

وعلى ذلك رأيت أن أهدى هذا الكتاب إلى شخصية مرموقة كريمة المحتد ، نبيلة المنحدر ، أكسبها العلم هيبة ووقاراً ، وأحاطها المدين بهالة من الخلق الرفيع والآداب العالية .

ويكفى أن يعلم الناس أنه فرع من الدوحة المراغية الفينانة ، التى امتد ظلها العلى فى أرجاء المعمورة ، والتف حوله القاصى والدانى من ثمارها . وطافوا حول مائدتها يتغذون ويتمتعون .

أقول : يكفى أن يعلم الناس ذلك ، ليلمسوا أى فخر أعتز به حينما أتقدم إلى فضيلة العالم الجليل الشيخ ﴿ عبد الله المراغى ﴾ مدير قسم المساجد بوزارة الأوقاف بإهداء هذا الكتاب . ولولا ثقتى فى سمو أخلاقه ، لمنعنى الحياء أن يتقدم ضعيف مثلى إلى عظيم مثله بهذا الإقدام الجرىء .

وليس فى وفاضى إلا الضراعة إلى المولى جل وعلا أن يطيل بقاءه ويحسن لفضيلته الجزاء ؟

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى هدى برحمته العباد سواء السبيل ، والصلاة والسلام على النبي المصطفى للرسالة العظمى الخالدة ، التى عبدت للناس مناهج الرشاد ، والسعادة فى الدنيا والآخرة ، وعلى آله وأصحابه ، ومن تأسى خطواتهم إلى يوم الدين .

وبعد ، فان القرآن الكريم ، هو الوسيلة المتينة التى ارتفعت بالإنسانية إلى أرقى مدارج السمو والعزة ، ونحت عن الدنيا تلك الستر الكثيفة التى حجبت عنها ردحا من الدهر معالم الفضيلة والاستقامة ، فظلت تتعثر فى معاطب الروح والجسم ، تتناوشها الأخطار العاتية من كل ناحية ، فلا تكاد تفيق من غاشية حتى تصدمها جائحة ، وهكذا أخذت تظلع ، وتترنح فى مهامه الفوضى والرذائل : بين أسنة مشرعة ، تسيل على حدها دماء بريئة ونفوس طاغية تتلظ شرها واستبداداً ، وعادات تمجها الطباع المتمدنة ، إلى ضروب لاتحصى ، انحدرت بالأخلاق والعقائد إلى الحضيض ، مما سجله التاريخ شاهداً على أحط ما تحيص فيه أمم فقدت اعتبارها الأدبى والاجتماعى ، وضحت بمقوماتها الخلقية والعلمية على مذبح الشهوات والأهواء .

فلما أراد الله جل شأنه ، وهو الرحمن الرحيم ، أن ينقذ عباده ، من شرور المفاسد والآثام . ويحفظ للانسانية كيانها من الانهيار ، بعث (محمد ابن عبدالله ﷺ) بالقرآن العظيم ، فكان معجزة أى معجزة ، تأثرت بها

نفوس أقوام شاردة . استعصوا على الرضوخ . لأطغى الطغاة ، وتمنعوا على الانقياد . ولم يلوهم عما ألفوه رغبة ولا رهبة . وانهمروا كالسيل ، يجرفون كل من يحاول التصدى لعاداتهم ، بل وكانوا يعتبرون كل محاولة لإلفاتهم عما اطمأنت إليه أهواؤهم إصراً لا يطهره إلا الحسام .

بيد أن رسول الله ﷺ ماكاد يتلو على أسماعهم آيات ربه الأعلى ، حتى هفت نفوسهم خاشعة ، وأهطعت أعناقهم خاضعة ، واستسلموا طائعين متبتلين .

فالقرآن الكريم بروحانيته وجلاله ، قد نضا عن العالم كل كل الجاهلية الفاسدة ، وجلى فى الأرجاء شموس المعارف والإيمان ؛ ولا أكاد أتصور ماذا كانت عليه حالة الدنيا ، إذا لم يكن النبى ﷺ ، بعث لهداية العالم ، وهل كانت تبلغ من المدنية والحضارة ، ما بلغته فى هذا العصر ، وما سبقه ، وما يليه ، تحت ضوء القرآن ورشاده ؟ وأى ضلال ترتضيه الإنسانية لنفسها ، أن تنحرف عن الجادة التى وجهها إليها خالقها الحكيم ، اللهم إلا أن تكون قد ارتكست من جديد فى حمأة الشرور الهدامة ، تلك التى تخلص منها جدودها القدامى (١) ، وأوصلوا إليها الحياة ، فى مسوح التقوى والورع والاعتدال ، فى نفوس أبية ، وقلوب زكية خاشعة ، فى إيمان خالص لله رب الأرباب .

فاللهم ضراعة إليك ، يامن أنت وحدك ، غافر الذنب ، قابل التوب ، شديد العقاب ، أن تنقذ العالم ، بما أنقذته به ، وهذه الوسائل قائمة ، وإليك سبحانك الأمر من قبل ، ومن بعد .

---

(١) أعنى الذين بعث النبى صلى الله عليه وسلم بين ظهرانيهم .

الباعث لى على وضع هذا الكتاب

هذا ، وإن الباعث لى على التصدى لهذا الأمر الخطير ، هو مادرج عليه المسلمون فى الدولة المصرية ، منذ عهد ليس بالقريب ، من تلاوة (سورة الكهف الشريفة) قبيل الصلاة من يوم الجمعة ، فى المساجد التى تؤدى فيها هذه الفريضة . وذلك لايخلو من حكمة ، وليس هو محض اتفاق للتسلية ، وقتل الوقت ؛ فالنفوس أصفى ما تكون عند ما تتجرد لعبادة خالقها ، والقلوب أخشع ما تكون حينما تتقرب إلى المولى تعالى ؛ والصلاة هى الساحة العلوية التى تتجلى فيها على قلب المؤمن فيوضات القدس ، وتكتنفه روحانية الملإ الأعلى ، وترتفع به عن الرواسب السفلية ، فيحلق فى آفاق الطاعة الإلهية ، والسمو النفسانى ، والكمال الخلقى ، والمجد الإنسانى ، والرفعة والنزاهة والإباء ، وما إلى هذه المقومات التى تنأى بالمرء عن كل ما يحط بمكانته كإنسان حظى بشرف المخاطبة من لدن « الله » .

وإذا كانت هذه حالة المصلى ، فأى غنم يظفر به إذا تليت عليه آيات ربه ، وهو ينتظر الصلاة ؟ أحسب أن الدنيا بمباهجها وزخرفها تتضاءل فى نفسه عن لحظة يقضيها فى هذه الساحة المقدسة ، وإن شيئاً لايقوم بطرفة عين يمضيها بين الإصغاء لقرآن يتلى ، وصلاة تنتظر .

لذلك رأيت أن أنتهزها فرصة ميمونة لحديث اجتماعى ، متبركا بآيات سورة الكهف على رأس كل حديث . كى يلم المصلون ببعض ماتنطوى عليه هذه السورة من توجيهات سامية ، تبلغ بالإنسانية إلى أرفع درجات العزة والفضيلة ، وينصتون إلى آيات يدركون أهدافها ومراميها ، فيزدادون بصيرة ومعرفة ، ولايكون كل مايستبضعون ، الإعجاب بصوت القارىء ،

ورقة جرسه ، فإن لم يكن صوته كذلك انصرف كل ، ينتاب نفسه مايساورها من منازع الحياة ، وشواغلها .

وإننى لست بسبيل وضع تفسير لهذه السورة ، كهذه التفاسير التى تحلل الآيات تحليلا لغويا ، من إعراب ، وتوجيهات نحوية ، وما إليها ، فهذه مهمة جليلة أداها أئمة الدين ، من أساطين العلم على أكمل وجه ، وهذه تفاسيرهم تزخر بها المكتبات ، ولكننى بسبيل إبراز النواحى الاجتماعية فى الآيات ، فان كنت وفقت فذلك فضل الله وعونه ، وإن كانت الأخرى ، فحسبى حسن مقصدى ، وما أنا إلا عبد ضعيف ، يرجو من خالقه المغفرة ، وحسن الثواب ؟

عبد الحميد مجازى

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

حمد الله تعالى ذاته على إنزال القرآن هداية للعباد

الحمد لله

لله ما أروع هذا الحمد العظيم من رب الأرباب ، لذاته المقدسة وما أجمل وقعه فى نفس المؤمن المتأمل فى جلال آيات القرآن الكريم ، وما تضفيه على النفوس الصافية ، والقلوب الزكية من فيوضات ، تجتذب الإنسان من رواسب المادة ، إلى ساحات الحضرة الربانية ، فى سبوحات العبودية ، وتجليات الحقائق الصمدانية ، فى لحظات فناء الأشباح ، وفى ديمومة خلود الأرواح .

أجل ! لقد تفضلت يارب على عبادك بالهداية من مخاطر الفوضى ، ومعاطب الرذائل ، فلك ذلك الحمد المقدس ، الذى حمدت به ذاتك الأعلى ، وأى نعمة أسبغتها على عبادك ، بما تفضلت به عليهم ، من إنزال الهدى ، يشع من ضوء القرآن .

بعض صفات الرسول

الذى أنزل على عبده

(محمد ﷺ) هذا الرسول المجتبى لهذه الرسالة ، كان المثل الأعلى فى الأخلاق العالية ، والآداب السامية ، أدبه ربه ، فأحسن تأديبه . ما كان فحاشاً ، ولا سبابا ، ولا طاغياً ، ولا متكبراً ، ولا غضوبا إلا لله ، بل كان

كريما ، مهيب الطلعة فى تواضع ، عظيم النفس فى إيمان ، لايرد سائلا ، ولا يقسو على متطاول مالم يمس حقا من حقوق الله ، يأمر بالعرف ، ويعرض عن الجاهلين ، يؤثر على نفسه ، ولا ينغمس فى النعيم (١) ، ويميل إلى حياة الزهد ، والدنيا فى قبضته ، والسماء لاترد له دعاء ، لايستبد برأى ، ولا ينكر صالحاً ، فكم أقر للقوم عادات ، ووجههم إلى مايجهلون من محاسنها ، لايقرب وجيها لوجاهته ، ولا ينحى فقيراً لفقره ، يتكلم فى جلال ، ويصغى فى وقار ، يرحم الصغير ، ويوقر الكبير ؛ هذه قطرة من يم ، من خلال سيد البشر ﷺ ، فهو معدن البر ، ومنبعه الصافى ، حتى كان بين قروم العرب وسادتهم ، وهم ماهم شكيمة صارمة ، وعصبية جامحة ، كالمصباح يضىء الظلم ، فأدنوه من نفوسهم ، وآثروه على فلذة أكبادهم ، وافتدوه بآبائهم وأمهاتهم ، وكان إذا استضيف صاحب الدار ، وإذا ادلهم الخطب محل الرجاء ، وإذا عميت الحقائق منار البصائر والأبصار ، وإذا ضل بالقاصى السبيل ، كان هديه نعم الدليل . اللهم صل وسلم على هذا النبي وإخوانه شموس المعارف ، وقادة العالم وهداته ، صلاة وسلاما دائمين ، متعاقبين ماتناوب الملوان ، وكر الجديدان .

هذا نموذج مصغر من خلال رسول الإسلام الذى أخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربه ، وليكون قدوة للعالم .

ألكتاب

لاجدال فى أن المرء أسير أهوائه . وملاذه ، فإذا أرخى له العنان ،

(١) لقد دلت التجارب على أن الانغماس فى النعيم يفتح على الانسان أبواب الشرور التى منها الركون الى مظاهر الدنيا ، والانصراف عن الاهتمام بشئون الآخرة .

ولم تحد حريته الجامحة ، ونزواته المتوثبة ، شرائع وقوانين ؛ فإنه يضل السبيل ، وترتبك نظم الاجتماع ، وتختل موازين الأمن ، وتحل الفوضى ، وتنفصم عرا التآخى ، وتتمزق وشائج التآزر والتعاضد . لذلك كان من رحمة الله بالعباد وتفضله عليهم بالهداية والفلاح ، أن أوحى من لدنه سبحانه كتباً ، جمعت أركان التعبد ، وفنون العلوم والآداب ، وسياسة المال والاجتماع ، صورت الفضائل فى أروع مجاليها ، ودعت إليها ، وهتكت الرذائل فى أبشع مباذلها ، وحذرت مغبتها ، وعلى ضوء كتب السماء سار المجتمع بخطوات متزنة ، واستنبط العلماء منها للناس مايحتاجون إليه فى حياتهم الدنيا من عبادات ومعاملات ، وحكمة من علام الغيوب أن أوحى كتبه لتخاطب جميع العقول ، وتلائم مختلف الطباع ، ولتكون مادة ثمينة لدعاة الإصلاح ، بما توجه إليه من امر ونهى ، والاسترشاد بتعاليمها ، فى كل حالة تعرض للإنسان من خير وشر . وإمام كتب السماء جميعاً هو القرآن ﴿ ذلك الكتاب الكامل ، الحقيق بأن يخص به اسم الكتاب ، لغاية تفوقه على بقية الأفراد ، فى حيازة كمالات الجنس ، كأن ماعداه من الكتب السماوية ، خارج منه ، بالنسبة إليه (١) ﴾

فهو وإن كان خاتم الكتب ، إلا أنه الأصل ، تفرعت عنه أولاها ، وهو لمنزلته العالية حوى علوم العصور وتواريخها (٢) ، لأنه الكتاب الذى ادخره الإله الحكيم ، ليهدى به العالم ، ويكتب له الخلود . وأيم الحق ، فإن من يتأمل فى هذا الكتاب الإلهى ، لايمكنه مهما قسا قلبه إنكار أنه وحى السماء ، فى نظمه حكمة وروعة ، وفى تشاريعه تهذيب وتوحيد وثقافة .

---

(١) مابين القوسين مأخوذ من تفسير العلامة أبى السعود

(٢) إنه على رغم العلوم التى استنبطت من القرآن الكريم ، فهو هو لم يسبر له غور ، ولم يكشف عنه نقاب ، إلا بالقدر الذى يحتاج اليه العالم ، حسب الظروف والملابسات ، وتطور العصور .

وأخيراً ماذا نبلغ فى وصف القرآن بعد حمد الله سبحانه ذاته ، على إنزاله هدى وإرشاداً .

صفة القرآن

وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَاً

﴿ أى شيئا من العوج بنوع اختلال فى النظم ، وتناف فى المعنى ، أو انحراف عن الدعوة إلى الحق ﴾

قَيِّمَاً

﴿ بالمصالح الدينية والدنيوية ، على مايئ عنه مابعده من الإنذار والتبشير فيكون وصفاً له بالتكميل ، بعد وصفه بالكمال ، أو على ما فيه من الكتب السماوية ، شاهداً بصحتها ، ومهيمناً عليها ، أو متناهياً فى الاستقامة ﴾

وهذا السياق الحكيم والوصف الرائع لكتاب الله ، يهيء العقول السليمة ، ويفتح مغالق القلوب لتلقى ما يتلوه من آيات ترتبط بوحدانية الله المقتدر القيوم ، وآيات ترتبط بالأخلاق الفردية والاجتماعية ، وآيات ترتبط بشئون الدنيا ، وما يلزم الناس أن ينهجوا فيها ، وآيات ترتبط بشئون الآخرة وما يجدر بالعقلاء أن يتبعوه ليصلوا إليها سعداء مكرمين

وعند ما تتهيأ العقول لذلك ، فان شيئاً مهما كان عنيفا مجلجلا ، لايقوى على أن يزعزها عن التعمق والتروى ، فيما سيتلو هذا التمهيد من دعوة ، تتضاءل إزاءها كل حوافز الجسم ، ودوافع المادة ، ويتصام إلا عما هو بسبيله من الاستقامة ، حتى يبلغ الغاية ، وتتكشف له آفاق الهدى ، ويفعم قلبه يقيناً وإيماناً ، ووحدانية وعلماً ومعرفة . فلا يرتاب عاقل والحالة هذه

فى أن القرآن قد أضاء سبل الحياة ، ودعم ممسكات الوحدانية ، وشيد قوانين الخلق ، ونفض الشوائب الخبيثة عن نظم الاجتماع .

إنذار عام

لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ

يعلم المتأمل فى كتاب الله أن مهمة الرسول ذات شقين : (الإنذار ، والتبشير) . وقد التزم النظم الكريم فى سردهما طريقة تعليمية ناجحة فى تهذيب البشرية ، وتثقيفها ، وذلك حسبما يقتضيه المقام ، وما يناسب تنبيه العقول ، وإيقاظ المشاعر ، فتارة يسوق الإنذار مفصلا ، حسب الدواعى التى تقتضيه ، وتارة يجمل ليلفت الأذهان أولا ، ويعد القلوب ، لما يعقب هذا الإجمال من التفصيل ثانيا . وفى هذا من التشويق البليغ ما ينقطع دونه الحجاج ، ويذوب فى روعته اللجاج .

وهذا الإنذار العام ، تنخلع له نفوس العقلاء هلعاً ورعباً ، ويدبر المبصرون لا يلوون على شىء ، فراراً مما يتأدى إلى تطبيقه عليهم ، وكأن صوت العقاب الهائل ، يجلجل فى أسماعهم إن هجست نفوسهم بهواتف الهوى ، ونزق الآثام .

فالويل لمن يعمى عن هذا الإنذار ، وخسرت صفقته ، وغبن غادياً ورائحاً ، ماذا ربح من وقر فى أذنيه ، وغشاوة على بصره ، فلوى عنقه عن الاستقامة التى تعبد مسالك التقوى ، وتفسح مجال السعادة والسلام ، حسب هذا الشرير تفاهة وشقاء أن إنذار السماء يلبيه ، ، ويلهب ظهره دائماً بالبأس الشديد ، والعذاب الأليم ، من قبل شديد المحال .

وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً

لمست فى الإنذار السابق عنف العقاب الهائل الذى ينتظر المنذرين ، وإنك لتلمس فى هذه البشارة معنى التكريم والرضا ، مما يجعل العقلاء يحرصون على المثوبة التى تتوقف على العمل الصالح ، الذى سيوضح التنزيل الكريم حدوده ، فيما يلى .

وفى الواقع فإن المؤمن الذى يسلم وجهه لرب الأرباب ، ويسير على سنن التعاليم التى قضاها الإله المطلع على السرائر ، فإنه يكون مثلا أعلى فى السمو الإنسانى ، والخلق النبيل ، والضمير الحى ، والحجى والكرم والجود والتسامح والرجولة ، والشهامة والنجدة .. الخ ، يؤدى ما عليه لله من صلاة وصيام وحج (١) . ويؤدى ماعليه لله وللمجتمع من زكاة وصدقات ، يكون بمظهره الخارجى - أى علانيته - فى كنف من الطاعة والتقوى ، ويكون بمكنونه الداخلى - أى سريرته - فى ربيئة من العقيدة والإيمان ، فلا يقصر فى حق من حقوق مولاه ، ولا يفرط فى حد من حدوده تعالى ، ولا يتهاون فى واجب عليه للناس ، فلا يطغى ، ولا يستبد ، ولا يريق دماً بريئاً ، ولا ينتهك عرضاً ، ولا يثلم حرمة ، ولا يغتصب ما ليس له ، ولا يتناول خمراً أو يدمن مخدراً . ولا يزاول ميسراً ، أى لا يظلم نفسه ، ويفر من المنكرات

(١) ليس المقصود من العبادة مظهرها الخارجى وحسب ، بل هى الى جانب ذلك هدف معنوى كريم ، قرره الكتاب العظيم ، فى آيات عزيزة ، كقوله تعالى : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » .

فراراً ، موقناً أنها جالبة لسخط الله ، ومن سخط عليه الله هلك ، وضل ضلالا بعيداً ، ومن رضى عنه سما ، وفاز فوزاً عظيما .

وهو بذلك يحفظ لنفسه وللانسانية المقومات التى تكفل حياة السعادة والرفه والكمال . ويدرأ عنها الأسباب المفضية إلى الفوضى والشقاء ؛ مدركاً أن غاية الاستقامة حتما المكث الدائم فى جنات النعيم .

فهل وراء ذلك مطمح لذى بصر ، أو مأمول لذى حجى ؟

إن من يتنسم هذا الفضل الربانى ، لا يفتأ مهرولا غير مبهور ، ولا ظالع ، حتى يبلغ آخر المطاف ، أسعد ما يكون نفساً ، وأهنأ ما يكون قلباً ، وأفرح ما يكون ظافراً ، لا ينال منه نصب ولا عناء .

يمثل ذلك أصدق تمثيل قوله تعالى : « طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى » ومن أعرف لخالقه منه ﷺ ، ومن أدرك منه لما أعده المولى سبحانه لعباده البررة الأتقياء ، فاستهان بعناء الجسم فى سبيل الوصول إلى هذه الغاية السامية .

الشق الثانى من مهمة الرسول

وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً

بعد الإشارة إلى البأس الشديد الذى ينطوى عليه الإنذار ، ليحتاط الإنسان لنفسه ، ويتجنب المزالق التى تعرضه لأخطر ألوان العقاب ، أخذ فى بيان الأسباب التى يترتب عليها تطبيق ذاك الإنذار الشديد ﴿ أى وينذر من بين سائر الكفرة هؤلاء المتفوهين بمثل هاتيك العظيمة خاصة ، وهم كفار العرب الذين يقولون : الملائكة بنات الله تعالى ، واليهود القائلون : عزير ابن الله ، والنصارى القائلون : المسيح ابن الله ﴾

ولقد رد الله تعالى على جميع هذه الطوائف رداً لامجال بعده لقائل وفى الحق فإن المنذر نوع من المخلوقات ، لا أدرى أتنطبق عليه الصفة الإنسانية المفكرة ، أم الحيوانية اللا مفكرة ، إذ قد بلغ النهاية القصوى فى الضعة ، وانحدر إلى أحط مهاوى السفالة والامتهان ، وإذا كانت الرذائل كثافة ظلمانية تغشى الروح ، فتحجب عن التبصر والهدى ، فكيف بالكفر وهو مصدر الشرور ، وأصل الجرائم ، ومنبع المفاسد ؟ .

الكافر شخص مادى بأوسع معانى هذه الكلمة ، لايؤمن إلا بالماديات ، ويرجع هذا إلى اعوجاج فى الطبع ومرض فى القلب ، وقصور فى القوى العاقلة ، أضعف سلطة الروح ، ومكن للجسم من الهيمنة على المقومات الإنسانية ، فتأدى ذلك بالكافر إلى إنكار كل مايتعلق بالغيب ، ولو دلت عليه المرئيات المحسة ، فلو أخبر بأن السماء تزخر بمخلوقات نورانية ، أومن أى عنصر كان ، وأنها تشبه المخلوقات الأرضية ، أو تخالفها لم يستطع عقله هضم ذلك ، بل ويذهب إلى أقصى حدود الغباء ، فيسخر من هذا الخبر ، ويظنه ضرب من الأساطير ، فإن واتته فرصة النظر فى إحدى المراصد الضخمة ، بعيدة المرمى نحو السماء ، ووقع بصره على إحدى هذه الكواكب التى توصل العلماء إلى اكتشافها ـ كالمريخ مثلا ـ فإنه يقر بوجوده ، بيد أن مشاهدته الحسية ، لاتعفيه من تحكم المادية فى قواه العاقلة ، المودعة فيه ، فإذا أخبر بأن الإله الذى أبدع هذا الكوكب الهائل ، أو ذاك ، ومن عليه ، هو الإله الذى أبدع الكوكب الأرضى ، ومن عليه ، فإنه مع ثبوت هذا الدليل المادى على وجوده تعالى ووحدانيته ، فلا يلبث أن تبرز فى مخيلته مؤثرات الغرائز الجسدية ، ومن ثم يرجح فى ذهنه الكفر والشك ، ولا يهوله إنكار بديع السموات والأرض ، أو وصفه بصفات الحوادث ، ويهرف

بأن الكون بكواكبه وجوائه ، بأحيائه وجماداته من مبتكرات الطبيعة . أى حدوث شيء من لاشيء ، وهذا أعجب ضروب الخطل .

الكافر جامد الشعور ، متحجر القلب ، عابث ماجن ، صفيق الوجه ، مهيض الكرامة ، يجترح الرذائل بحذافيرها (١) ، وهو لا يعتقد بأضرارها الروحانية ، أو الاجتماعية : يرى أن المرأة كونتها الطبيعية للمتعة والتلذذ ، وحسب ، وأن الخمر يمتزج بكحولها الصفو والسرور ، وأن الميسر أداة لهو وتسلية ، ولا يرى غضاضة فى اغتصاب الحقوق ، والاستبداد بالضعيف ، بل إنه يتخذ ذلك مظهراً من مظاهر الزهو والعزة والغلبة ، ويقيسها بمقياس المدنية ، لا بمقياس الهمجية الغاشمة .

تجول بين ربوع دولة لادينية ، وادرس عاداتها وتقاليدها ، واقصص مشاهداتك على علاتها ، مجردة عن التعصب والتعليق ، وابدأ بأية دولة ، ممن حمل الأثير دعاية واسعة عريضة ، استنفدت بياض النهار ، وفحمة الليل ، لمدنيتها الراقية ، ونهضتها الحديثة ، وعن نبغائها العباقرة ، الذين طافت مؤلفاتهم الدنيا فى مختلف العلوم والفنون ، وكانت موضع الإعجاب ، والدراسة المستفيضة .

أليست تلتهم قرى هذه الدول وأمصارها ، سهولها وحزونها : الجرائم الخلقية ، وتحفها المخاطر الاجتماعية ، ويتأجج فى أرجائها سعير الرذائل الفاتكة ، وتنتهك قواهم الشرور والآثام :

إباحية مطلقة جارفة ، لا تتعارض مع تشييد مرقص بجوار بيعة ، أو ملهى فى بناية معبد ، أو حان قبالة هيكل ، وما إلى ذلك ، مما تأباه تعاليم الإسلام .

(١) اننا اذ نتناول هذا الموضوع تناولا عاما ، فانما نقصد من يتصف بهذه الصفات التى نسوقها

ومجون واستهتار ، وعبث وضلال ، ولهو ولعب ، وفسق وفساد ، وغواية ورقاعة ، ظلمات بعضها فوق بعض .

لايعرف الكهول رجالا ونساء ، معنى الرزانة والوقار ، ولا يقدرون واجبات السن ، وسنن الطبيعة . فينغمسون فى الملاهى ، ويسفون إلى أبعد حدود الإسفاف ، لأن نشأتهم أحداثاً ، فاسدة خبيثة ، جانبت تعاليم السماء ، ورشاد الوحدانية . ولايحترم الشباب حقوق المجتمع . ولا يقدس مثلا عليا ؛ فمن مقاييس الرقى فى عرفهم كثرة الخليلات ، ومن علامات الرفاهية والحضارة ، التحايل والخداع والتغرير . والمهارة فى فنون الرذائل ، وبز الصحاب فى القمار ، والمضاربة والربا والتدليس ، وتنسيق الزور ، وحبك المفتريات ، والتغلب على الخصم بالحق وبالباطل ، وإزلال الضعيف ، وانتهاك الحرمات ، وسلب الحقوق ، وسفك الدماء ، واستعباد من ولدتهم أمهاتهم أحراراً .

يخاصر الفتى الفتاة على مرآى ومسمع من ذويهما ، فيشيعوهما بإعجاب ، وابتسامة زهو وحبور ، ويلوث المجرم يديه بدم ضحيته ، ويعب فى الجرائم عبا ، أياكان نوعها : أدبية أواجتماعية ، فيصفق له النظارة استحسانا وتمجيداً .

هذا بعض أوصاف المجتمعات اللادينية المنحلة الفوضوية ، فهل ينطبق شىء منها على مجتمعات الإسلام ؟ وهل توافق هذه العادات النابية دساتير السماء وقوانينها ؟

حكم ضميرك إذا قضيت مقسطاً ، وقارن بين الإنسانين ، أيهما أخلق بألقاب المدنية والحضارة ، وأيهما أحق بالمجد والتكريم : مؤمن تقى ، يسير على سنن من التبصرة والهدى ، ويحظى بكرامة البشرى بالأجر الحسن فى جنات الفردوس ، على ماأسلف فى الأيام الخالية ؛ وكافر مجرم زنيم لايمتاز

عن الحجارة فى شىء ، كما قرر العلماء ذلك ، حيث أطلقوا على الجسم صفة الجماد . ولا ريب أن من يفقد مميزات الروحانية ، فانه يفقد اعتباره كإنسان ويولى الجسم عنايته واهتمامه . ولا يحفل بما عداه ، وبذلك تحيط به لعنات الإنذار بالبأس الشديد فى جهنم جزاء بما قدمت يداه .

وأحسب أن هذه المقارنة بين الذين بشروا بالثواب الوافر ، وما تحملوا به من المقاصد النبيلة ، وحسن الأحدوثة ، ودوامهم فى رضوان خالقهم ، قد حفزك على الانتظام فى سمطهم ، وهجر أولئك المنذرين الذين أساءوا إلى الإنسانية ، وشوهوا بهاء الأخلاق ، وتعاموا عن إدراك المرامى التى هدفت إليها تعاليم السماء ، وتوغلوا مع هوياتهم الفاجرة ، فيما تدفع إليه من مجاهل الفوضى والآثام .

جهل المنذرين بما نسبوه إلى الله

مَالَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ

فلم يبلغ الحمق والجهل بإنسان ، مابلغه بهذه النفاية ، فتخطوا سياج العقل والبصر ، واجترحوا أبشع مايجترحه مأفون وضيع ، فى حق الإله الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، واتخذوا من صفات الحوادث نكأة فى زعمهم الخاطل ، ولو كانت بهم مسكة من فهم وذكاء ، لنزهوا خالق الأكوان عن التناسل ، ومايستدعيه من ضرورة الدور والتسلسل ، والفناء المحتوم على كل ذى نسمة ، وكل ذى جرم .

ولكنه الجهل المطبق ، والتقليد الأعمى ، والرجعية المنهوكة ، دفعهم إلى هذا المأزق المحفوف بالأخطار ، فوقعوا على وتيرة آبائهم ، غير

متدبرين جريرتهم ، وعمق الهوة التى ارتطموا بها ، فتلقفوا شرور سلفهم على علاتها ، واعتنقوها إثماً مبيناً ، فكانوا أفسد خلف ، لأخبث سلف .

شناعة مانفوهوا به فى حق مولاهم وبعده عن الصدق

كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً

هل وقفت على حقيقة نفسية المنذرين ، وماذا أبقوه لأنفسهم من كرامة ، ولعقليتهم المتبلدة من قيمة ، ولأخلاقهم المنحلة من ذمام ، فتخلفتهم الآثام كلها . وقذفت بهم من حالق ، وأى شعور يساور من يطلع على مكنون من يستجمع فى هيولته عناصر الكذب الفاضح ، والضلال الصارخ ، وهلا يأنف الاحتكاك بهم ، ويأى عن مجمعهم ومسراهم ، فقد ﴿ عظمت مقالتهم هذه فى الكفر والافتراء ، لما فيها من نسبته سبحانه إلى مالا يكاد يليق بجناب كبريائه ﴾

تصوير حالة الرسول إزاء جموح المنشقين على دعوته

فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً

لقد اقتضانا المقام فيما سبق أن نرسم صورة مصغرة لعظمة محمد الرسول ، أما إنى لا أقول عظمة مادية ، تستمد هيبتها من مظاهر الألهة والسلطان ، ولكن أقول عظمة شخصية وصلت الأرض بالسماء ، استمدتها من بديع الأكوان ، واكتنفت عزها من عزه تعالى ، وسمت على كل مقام بشرى .

وذلك . كى تدرك العبودية لرب الأرباب . على وجهها الصحيح . ولما كان النظم الكريم . قد بين أولا وظيفة الرسول كعبد لله . اختاره ليكون مهبط وحيه . أخذ يضفى عليه ثانياً . بعد شروعه فى مهمته . حلل الطاعة والأمانة . وشدة أسره فى أداء رسالته . مما تستلزمه فروض العبودية الخاشعة المتبتلة . الصادعة بالأمر . وثم يقسرنا المقام مرة أخرى . لوصل الحديث السابق ، حتى تتم الصورة ، وينبلج الضوء :

وصف القرآن العظيم الرسول بالرأفة والرحمة « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » ، فقد كان رسول الله ﷺ ، مثال العطف والشفقة والحنان ، إلى جانب أنه كان مثال السمو المادى (١) والمعنوى ، يعيش فى الأرض على ضوء من السماء ، ويخالط الإنسانية فى حضرة من الله ، « فإذا فرغت فانصب ، وإلى ربك فارغب » فهو ملك فى بشر ، بل أعلا ، وفضيلة فى مخلوق ، بل أزكى ، ﷺ ، وكرم ومجد : أمانة وصدقا ، إخلاصاً وبرا ، كرماً ووفاء ، نجدة وإباء ، قواعد الخلق ، وقوانين المحامد ، فماذا يضيره وهو المصطفى ، أو ما يغويه ، وهو رسول القدير العليم « وإنك لعلى خلق عظيم » .

لذلك فقد كان ﷺ يحرص كل الحرص على تهذيب الإنسانية جميعاً ، يحزن ويأسى أن يرى فيها اعوجاجاً ، ويطمئن سروراً أن يهتدى جلف يأوى إلى خيمة فى قمة جبل ، ينام العالم ملء جفونه ، ويسجى الليل بهدوئه وظلامه الطبيعة . وهو ساهد يتلقى تعاليم الهداية والرشاد ، ويتدارس نظم الاجتماع ، وقوانين الحياتين ، يعالج الجاحد المنكر ، ويواليه كظله ، ليزعزعه

---

(١) نشير بذلك إلى قوله تعالى : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » أى ليس هو من معدن آخر غير معدنكم

عن المخاطر التى يشرف عليها ، كالطبيب بين يديه مدنف ، أعز أمانيه أن يخلصه من فكى الفناء « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » فلو جمعت الرحمة فى أسلوب فهو هاك ، ولو وصف العطف والحب يسبر السرائر ، لهو ذاك .

المفروض أن وظيفة الرسول هى القضاء على الشرك والكفر ؛ ليختفى شبح الجرائم الخلقية والصحية ، والاجتماعية ، وتطهر الأرض من الرجس والضلال ، وتصل الإنسانية حين تصل إلى آخرة سعيدة هانئة ، وبحكم معرفة الرسول للإله سبحانه وتعالى معرفة كاملة صحيحة ، وقربه من الملإ الأعلى ، فهو يحافظ جهده أن لا يبدو عليه أى تقصير أو فتور فى تأدية وظيفته ، ولا يحفل بما يعتريه من وعثاء ونصب ، كالعبد الذى يحبه مولاه ويكرمه . فإذا كلفه بعمل مهما كان شاقاً ثقيلا ، فإنه يعنى بإحسانه وإجادته ، ليقوم بواجب الشكر ، على آلاء مولاه التى أسبغها عليه ، وخصه بها ، ولو شاء حولها إلى سواه .

عرف الرسول ﷺ ربه معرفة حقيقية ، وأحب أمته حباً عميقاً ، فهو إذ يتفصد عرقاً فى إسعادها ، فإنما تتنازعه عاطفتان ، من أنبل العواطف ، ويهون عليه المجاهدة ، إيمان وقيادة ، فله إذن عذره أن يمثل الطبيب ، تظهر له اختباراته العلمية أن الجسم التهمته الأدواء ، ومع ذلك ، فهو لا ييأس من الشفاء .

تصوير حالة الدنيا . والزجر عن الانسياق وراء الهوى

إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا

من حكمة القرآن ، وروعة نظمه الإلهى ، ودقة توجيهه للبشرية خاصة ،

والمكلفين عامة . الوجهة التعليمية الصحيحة . أنه بعد أن حلل نفسية المبشرين والمنذرين ، وجلى أوصافهم فى أوضح بيان ، وسكن جأش الرسول ﷺ لجموح المعاندين . أعقب ذلك ببيان حقيقة الدنيا ، والغرض من وجودها ، وفى هذه الآية الكريمة من الحكم ما تتضاءل دونه روائع البيان :

١ ـــ تسفيه من يدحره لألاء الدنيا الخادع ، عن جادة الصواب ، ويتخذها عزوة لآماله وأمانيه .

٢ ـــ كشف حقيقتها للمؤمنين الموحدين ، ليزدادوا تمسكا بما هو أبقى وأدوم .

٣ ـــ تقرير أن كل ما زخرت به من متع وملاذ ، فقد قصد به الابتلاء ، ومحكا للطبائع .

٤ ـــ تأكيد أن مآل كل ذلك الفناء المحتوم . الخ . .

ومن ثم يبدو لى أن المقام هنا تناسبه وقفة قصيرة عند كينونة الحياة الدنيا ، أو الأرض : فهى هذا الكوكب المظلم الذى هيأه الله تعالى ، وسطاً بين الحرارة والبرودة ، ليكون صالحا لبقاء النوع الإنسانى ، الذى هو أسمى أنواع المخلوقات ، بما أودع الله فيه من عقل نورانى ، يستشرف المعارف ، ويهضم العلوم على اختلافها : مدنية كانت ، أو فلسفية ، أو اجتماعية ، أو دينية . وهذه ميزة لم تحظ بها الكائنات الأخرى (١) ، ومن أجل ذلك سخر الله جميع الخلائق ، تعزيزاً لبقائه ، وإكمالا لشئونه الحيوية ؛ ولما ركز فى جبلة الإنسان من طبع بهيمى ،

---

(١) لايناقض ذلك ماتقرر من أنه كان بين الملائكة من يحمل رسالة الله إلى عباده الرسل فى الأرض ، وما أثر من أن جبريل كان يتذاكر القرآن مع النبى ، فتلك مهمة يؤدونها دون أن يؤثر أنهم مطالبون بدراستها دراسة تحصيل ، وتعلم وتكليف .

وغرائز شهوانية . يشارك فيها جميع الحيوانات الأخرى . أوجد تعالى فى الأرض . مالا حصر له من المتع والملاذ التى تتطلبها حياته . ويحفظ كيانه . ولتكون مقياساً على الرقى أو الهمجية « إنا جعلنا ماعلى الأرض زينة لها لنبلوهم » فالعاقل الذى يحجم عما يؤذيه فى عقيدته وأخلاقه وصحته . والملتاث دنىء النفس الذى يتشهى ماينفر عنه الطبع المدنى . العاقل الذى يأخذ من ملاذ الحياة ومتعها القدر الذى أحله الله دون إفراط وتفريط ، ولقد أثر أن الانسان يأكل ليعيش . والحيوان يعيش ليأكل .

المصير المحتوم للأرض الدنيوية

وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (١)

هذه الحياة التى تقرر إنماءها كلية ، وإحالتها إلى بلقع يبابا ، وإعدام كل مازخرت به من المباهج ، ومعالم الزينة ، لتفاهته ، وأن قيمته لاتعدو قيمة التراب الذى يوطأ بالنعال : لايليق بإنسان يحترم نفسه ، ويعرف قدر منزلته فى الحياة والمهمة التى يوديها بين الأحياء الأرضية العاقلة ، أن يفسد وظيفته الحقيقية . وهى العمل الصالح ، بمغريات حقيرة . ملاذها أوهام وأوصاب ، ومسراتها هموم وأتراح .

(١) قال العلامة أبو السعود : « وإنا لجاعلون » فيما سيأتى ، عند تناهى عمر الدنيا « ما عليها » م المخلوقات قاطبة ، بافنائها بالكلية ... « صعيداً » والصعيد التراب ، أو وجه الأرض . قال أبو عبيدة : هو المستوى من الأرض ، وقال الزجاج : هو الطريق الذى لانبات فيه . « جرزاً » ترابا لانبات فيه ، بعد ماكان يتعجب من بهجته النظار ، وتتشرف بمشاهدته الأبصار ، يقال : أرض جرز لانبات فيها ؛ قال الفراء : جرزت الأرض فهى مجروزة ، أى ذهب نباتها بقحط ، أوجراد ؛ ويقال : جرزها الجراد والشاة والابل ، اذا أكلت ما عليها . . والمعنى لاتحزن بما عانيت من القوم من تكذيب ما أنزلنا عليك من الكتاب ، فانا قد جعلنا ماعلى الأرض من فنون الأشياء زينة ، لنختبر أعمالهم ، فنجازيهم بحسبها ، وإنا لفنون بيع ذلك ، ومجازون لهم بحسب أعمالهم .

آيات أصحاب الكهف - ارتباطها بما تقدم

صفة المؤمنين الذين آثروا الوحدانية

بما تستحقه من سمو ورفعة على خداع الدنيا الفانية

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا

بعد أن نوه الاله جل شأنه بشأن المؤمنين الذين يعملون الصالحات عموما . عقب سبحانه بتفصيل حالهم . فقد ضرب أصحاب الكهف بفرارهم إلى خالقهم العزيز الحكيم ، أعظم الأمثال فى الإيمان والتقوى والورع ، والاحجام عن سفاسف عصرهم ، ونبذ المظاهر الجوفاء ، واحتقار التمتع الفج ، ونشدان السعادة الحقة ، بإيثار الوحدانية والعمل الصالح ، على وعود جذابة ، ووعيد مروع ، تتخاذل منه أعصاب الجلد الشجاع ، ولا يصمد له الكماة ، وبذلك استحقوا هذا الذكر فى كتاب السماء ، ليكون مقصدهم الأسمى ، وتفانيهم الكلى نموذج لمن اجتذبه شوق العبودية ، ومثلا تقتدى .

ففى التجائهم بدينهم إلى الكهف معنى الفرار إلى الله ، وفى احتقارهم لمركزهم السامى فى دولتهم معنى الزهد فى الفانى ، وفى استجابة الله لدعائهم أن ينقذهم من توعد الأشرار ، وأن يحفظ عليهم نعمة الايمان معنى إجابة دعاء المؤمنين الصادقين ، وأنه جلا وعلا قريب يجيب دعوة الداعى إذا دعاه ، وفى لبثهم فى الكهف هذه المدة الطويلة معنى الفناء ، وفى بعثهم من رقدتهم معنى البعث العام يوم النشور ، وأن الله على كل شىء قدير ، وفى

انتصارهم آخر الأمر ، وجعل رسمهم رمزاً على الطاعة والعبادة ، معنى انتصار عوامل الخير والإيمان على مفاسد الشرور والآثام ، الخ . وسيمر تفصيل هذه المعانى فى مظانها التالية .

والمعنى أن قصتهم وإن كانت خارقة للعادات . ليست بعجيبة بالنسبة إلى سائر الآيات التى من جملتها ماذكر من تعاجيب خلق الله تعالى . بل هى عندها كالنزر اليسير . والكهف : الغار الواسع فى الجبل ، والرقيم : كلبهم ، قال أمية بن أبى الصلت :

وليس بها إلا الرقيم مجاوراً وصيدهم ، والتموم فى الكهف همد

وقيل : هو لوح رصاص أو حجرى ، رقمت فيه أسماؤهم ، وجعل على باب الكهف ، وقيل : هو الوادى الذى فيه الكهف ، فهو من رقمة الوادى ، أى جانبه ، وقيل : الجبل ، وقيل : قريتهم ، وقيل : مكانهم بين غضبان وأيلة ، دون فلسطين ، وقيل : أصحاب الرقيم آخرون ، وكانوا ثلاثة انطبق عليهم الغار ، فنجوا بذكر كل منهم أحسن عمله ، على مافصل فى الصحيحين ﴾

إيثار المؤمنين دينهم على الملذات الجسمانية

إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ

فهؤلاء الفتية ، كان لهم من منازل الحياة الذروة ، ومن المقام الاجتماعى السنام ، بيد أنهم لما أحسوا الخطر يحدق بدينهم انطووا عليه انطواء الأم الرءوم على وحيدها ، وضموا عليه حناياهم ، متسللين إلى حيث لا تقع عليهم باصرة ، أو يعكر عليهم هدوءهم ، ومناجاة إيمانهم جلبة الناس ولغطهم وغوغائهم فى مباذل الحياة ولهوها ، فأى مشهد يمثلونه فى سراهم ، وقد نبذوا الدنيا بقصورها العالية ، وحدائقها الغناء ، والحشم والأقنان ،

والموالى والأخدان . واستبدلوا الفرش الوثير بالحصباء ، فى كهف تعصف به الرياح ، وتسفى الرمال ، بين زئير الوحوش . وفحيح الحشرات وقد رمزوا لجميع العصور والأجيال بكلبهم ، على أن مصاحبته أفضل من مصاحبة الكافر . ولو امتلك خزائن الذهب النضار .

تعطش المؤمنين إلى طلب المزيد من الرشد والهداية

فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا

وحينما استوى بهم المقام ، واطمأنوا على دينهم من عوادى المجرمين ، وتلمظ الأشرار ، وكانوا أشبه بمجهد نهنه الإعياء والنصب قواه ، وضعضع حواسه ، ، فى ليل أليل ، تلفه صبارة القر ، وقد آوى إلى مقعد ناعم الملمس ، يشمله الدفء من كل ناحية ، فأى راحة تسرى فى أوصاله ، وأى سعادة تنساب فى شعوره ؟ إن الفتية بعد أن تنفسوا ملء رئتيهم هدوء واطمئناناً على دينهم ، اتجهوا بالضراعة نحو السماء ، بأكرم دعاء ، يصدر عن قلب خاشع ، ونفس تفيض إيمانا ووحدانية : « فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة . . »

إسباغ نعم الله على الخاضعين لعزته وجلاله

فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِى الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا

فمن المسلم به أنه ليس هناك شىء آثر فى نفس الخائف الوجل ، الذى تهجس فى روعه أوهام الشر . وملاحقة الأعداء ، من فترة يغمض فيها جفنه ، وتلم به أطياف الوسن ، فتنأى عنه أشباح السجن . ومن المقررات

النفسانية أن الخائف حليف السهد والأرق . لا سيما إذا كان الخوف هالعاً . والذعر ناهكا . حتى إذا سرت به سنة . فهى متقطعة عابرة . تثير كوامن الجزع . وتجسم ظل الحدس .

فإذا أضفى الاله سبحانه نعمة النوم العميق على فتية الكهف . فما ذلك إلا أثر كريم من فيوضات رحمته التى يشمل بها عباده المخلصين .

تجلى قدرة الله . وإظهارها للعباد

ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا

أجل فكل شىء يدل على قدرة الله تعالى ووحدانيته . وأنه الفعال لما يريد . ولا يؤثر فى ذلك أن بعض ذوى العقول المادية قد حال بينهم وبين إدراك أسرار اللطائف الربانية . كثافة الحيوانية البهيمية . وانكماش تصورهم عن الوقوف على دقائق قدرة من إذا قال للشىء كن فيكون . فإذا توهموا أن ثمة عوامل تحفظ الأجسام عن التحلل والفناء . فإذا تخطتها . فإن شيئا لايعصمها عن ذلك ، فقد دلوا على غبائهم وسخافة أحلامهم بأبلغ دليل ، لأن الاله الذى بدع الأكوان بأحيائها ونباتها وجمادها ، قادر أن يبدع من العوامل الخارجة عن حدود التصورات البشرية ، ماينفذ به مشيئته ، ويظهر قدرته ، ويصير فى الخلود ناطقا على وحدانيته جل وعلا . وذلك بالطبع لايخفى على المؤمنين الذين هذبت الوحدانية نفوسهم . وطهرت قلوبهم . ولايحجب عن بصيرتهم رؤية الحقائق : قواقع الشك . ولا طحالب الكفر الخبيث .

تفضل الاله باطلاع عباده على قصة أهل الكهف

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ

لإخال المنكر مهما اندفع فى عمايته أن يتملص من الاعتراف بحقيقة أبهر من الشمس ، هى أن القرآن وحى السماء ، وأن فى تشريعه سمو ، وفى نهيه فضيلة ، وفى أمره كمال ، نظر إلى الانسان من زاوية الكرامة والاباء ، وذلك بطبيعة الحال ، لا يتأتى بأية وسيلة إلا عن طريق الوحدانية ، فكيفما أدير الأمر ، وبحث على جميع الوجوه ، فانه لا يستقيم إلا حيث كان الايمان الخالص ، والعمل الصالح ، فإن تجاوزه كانت الحيوانية تتنازع المقومات وتهبط بالمكرمات ، وتقذف من حالق ، وأى سحيق يتردى فيه ذلك الذى يتهدى غير السبيل الذى يكفل للسارى مشارف الرفعة ، ومناط المجد والسعادة ، ويأبى إلا أن يسلم مميزاته الانسانية لخطفات الضلال ، وزخارف الغرور ، ومخارم الهلاك ؟

دعا القرآن الكريم العالم إلى التدثر بدثار الفضيلة ، والبعد عما يحط من مكانة الانسان حيث هو إنسان ، وركز دعوته للوحدانية ، وتشاريعه كلها فى هذا السياج . فأى اعتراض فى ذلك لمن خالف توجيهات القرآن وإرشاده ، وأبى إلا الاصطدام بصخور العتو والجموح ؟

هذا ، ونبأ الفتية ، حسبما ذكره محمد بن إسحاق بن يسار : أنه قد مرج أهل الانجيل ، وعظمت فيهم الخطايا ، وطغت ملوكهم ، فعبدوا الأصنام وذبحوا للطواغيت ، وكان ممن بالغ فى ذلك ، وعتا عتوا كبيراً دقيانوس فانه غلا فيه غلواً شديداً ، فجاس خلال الديار والبلاد بالعيث والفساد ، وقتل من خالفه من المتمسكين بدين المسيح عليه السلام ، وكان يتبع

الناس . فيخيرهم بين القتل وعبادة الأوثان . فمن رغب فى الحياة الدنية يصنع مايصنع . ومن آثر عليها الحياة الأبدية . قتله ، وقطع آرابه . وعلقها فى سور المدينة وأبوابها ، فلما رأى الفتية ذلك . وكانوا عظماء أهل مدينتهم وقيل : كانوا من خواص الملك . قاموا فتضرعوا إلى الله عز وجل ، واشتغلوا بالصلاة والدعاء . فبينما هم كذلك . إذ دخل عليهم أعوان الجبار فأحضروهم بين يديه . فقال لهم ما قال ، وخيرهم بين القتل ، وبين عبادة الأوثان ، فقالوا : إن لنا إلهاً ملأ السموات والأرض عظمته وجبروته ، لن ندعو من دونه أحداً ، ولن نقر لما تدعونا إليه أبداً ، فاقض ما أنت قاض ، فأمر بنزع ماعليهم من الثياب الفاخرة ، وإخرجهم من عنده ، وخرج هو إلى مدينة نينوى لبعض شأنه ، وأمهلهم إلى رجوعه . ليتأملوا فى أمرهم ، فإن تبعوه ، وإلا فعل بهم مافعل بسائر المسلمين ، فأزمعت الفتية على الفرار بالدين ، والالتجاء إلى الكهف الحصين ، فأخذ كل منهم من بيت أبيه شيئاً ، فتصدقوا ببعضه ، وتزودوا بالباقى . فأووا إلى الكهف فجعلوا يصلون فيه آناء الليل ، وأطراف النهار ، ويبتهلون إلى الله سبحانه بالأمن والجوار ، وفوضوا أمر نفقتهم إلى يمليخا . فكان إذا أصبح يضع عنه ثيابه الحسان ، ويلبس لباس المساكين ، ويدخل المدينة ويشترى ما يهمهم ، ويتحسس ما فيها من الأخبار ، ويعود إلى أصحابه ، فلبثوا على ذلك ، إلى أن قدم الجبار المدينة ، فظلبهم ، وأحضر آباءهم ، فاعتذروا بأنهم عصوهم ، ونهبوا أموالهم ، وبذروها فى الأسواق ، وفروا إلى الجبل ، فلما رأى يمليخا مارأى من الشر ، رجع إلى أصحابه ، وهو يبكى ، ومعه قليل من الزاد ، فأخبرهم بما شاهده من الهول ، ففزعوا إلى الله عز وجل ، وخروا له سجداً ، ثم رفعوا رءوسهم ، وجلسوا يتحدثون فى أمرهم ، فبينما هم كذلك ، إذ ضرب الله تعالى على آذانهم ، فناموا ، ونفقتهم عند

رءوسهم . فخرج دقيانوس فى طلبهم . بخيله ورجله ، فوجدوهم قد دخلوا الكهف ، فأمر بإخراجهم ، فلم يطق أحد أن يدخل عليهم ، فلما ضاق بهم ذرعاً قال قائل منهم : أليس لو كنت قدرت عليهم قتلتهم ؟ قال : بلى ، قال : فابن عليهم باب الكهف ، ودعهم يموتوا جوعاً وعطشاً ، وليكن كهفهم قبراً لهم ، ففعل ، ثم كان من شأنهم ما قص الله عز وجل عنهم .

لعلك بعد ما تلوت هذه القصة الرائعة الأخاذة ، قد تأثرت نفسك بما انبث بين سطورها من صراع عنيف بين عوامل الشر ، يدعمها جبروت السلطان ، وطغيان الاستبداد ، وتلوث الطبع بنفثات الشياطين ، وبين عوامل الإيمان ، تؤيدها الوحدانية ، والفناء فى الله ، ونبذ كل ما يدهده بالإنسان فى غيابة الجهل والخبل ، فنضا الفتية الوجهاء الأشراف عنهم مظاهر الأبهة والفخامة ، بما تستدعيه من جنوح القصد ، وانهيار ممسكات الكرامة ، وهرعوا لا يلوون على شىء ، إلى حيث القر والقيظ ، بما يستدعيه من رضوان الله ، ومثوبته .

وصف عقيدتهم

إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ

فالمرء بداهة لا يبلغ درجة رضوان الله إلا بالإيمان به تعالى ، وليس شىء أعظم فى هذه الحياة من الإيمان برب الأكوان « إن أحسن ما قلته أنا والنبيون قبلى لا إله إلا الله » فالإيمان بالله تعالى رمز كل فضيلة ، وهو مصباح العقول ، ومنار الأبصار ، وسنا القلوب ، وعصام النفوس عن الانفعالات الشريرة ، وإن من يذق حلاوته ، لا يحفل فى سبيل الذود عنه ، بما يعترى الجسم من آلام وعناء ، ولست أكون مبالغا إذا

قلت : إن العناء الجسماني ، من عوامل تدعيم الإيمان ومناعته ، « ما أنت إلا إصبع دميت ، وفي سبيل الله ما لقيت »

تقرير أن هدى المؤمنين في ازدياد مستمر

وَزِدْنَاهُمْ هُدًى

فكيفما جالد الإنسان وصارع ، ليمتلك القصور الشاهقة ، والضياع المترامية وتصطف حول جدره الخدم والحشم ، ويستهل مقدمه بالتملق والتطامن ، فلا يقاس هذا وغيره ، مما وصفه الشعراء ، وأمراء البيان ، بأنملة مما يضفيه الله تعالى على عباده المخلصين من الهدى ، ومن قال: إن الفاني الزائل كالدائم الخالد ، وأين الميزان الذي يساوي بين الوهم والحقيقة ؟

تتابع النعم على المؤمنين

وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ

أيقنت الآن ، أننا لم نعد الحق ، فيما ذكرنا : إن الدنيا من أقصاها لأقصاها ، لا تقوم بطرفة عين من رضاء الله ، لأن امتلاكها لا يدفع شرا محدقا ، ولا يجلب منفعة مأمولة ، أما الذين قاموا في أفياء الربوبية ، وتضمخوا بشذى العبودية ، فإن قوة لا تصمد لهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون

ومعنى الربط على قلوبهم ، تقويتهم ﴿ حتى اقتحموا مضايق الصبر ، على هجر الأهل والأوطان ، والنعيم والاخوان ، واجترءوا على الصدع

بالحق ، من غير خوف وحذار ، والرد على دقيانوس الجبار .

أجل : فهذا حق لا يمارى فيه إلا الأغبياء الأشرار . وإنى أقرر أنه لولا ما قضاه الله تعالى من جعل فرارهم إلى الكهف ، ومكثهم فيه آية بينة على التقوى والإيمان . ودليلا على قدرة العزيز الحكيم ، لجابهوا تهديد دقيانوس لهم بالقتل غير حافلين ، لا يزعزع إيمانهم قوة الجلاد ، ولا بريق السيف ، ولكنها الموعظة الدائمة تبقى عليهم ، لتتجلى فى أشخاصهم متحركين وساكنين ، وتبدو فى حلة قشيبة من وحى السماء ، بلسما للأدواء والأوبئة .

الأسباب التى من أجلها استحق أصحاب الكهف التكريم

إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ

المراد بقيامهم انتصابهم لإظهار شعار الدين ، قال مجاهد : خرجوا من المدينة ، فاجتمعوا على غير ميعاد ، فقال أكبرهم : إنى لأجد فى نفسى شيئاً ، أن ربى رب السموات والأرض ، فقالوا : نحن أيضاً كذلك ، فقاموا جميعاً « فقالوا ربنا رب السموات والأرض » - ضمنوا دعواهم مايحقق فحواها ، ويقضى بمقتضاها ، فان ربوبيته عز وجل لهما ، تقتضى ربوبيته لما فيهما ، أى اقتضاء ، وقيل : المراد قيامهم بين الجبار من غير مبالاة به ، حين عاتبهم على ترك الأصنام .

هذا ، ولنفرض جدلا أن « أصحاب الكهف » قد جرفهم تيار أهل زمانهم ، وعز عليهم خلع النعيم الذى كان يغمرهم فى دولتهم ، ورضخوا لإدارة دقيانوس ، ومردوا فى مخاطر الفوضى والضلال ، حتى عدت على جيلهم

عوادى الانقراض . وطبقت عليهم سنن الطبيعة من الفناء والعدم الدنيوى . فأين كانوا هم الآن ؟ أليسوا كانوا فى رسن قومهم ينتظرون جميعاً سوء الحساب . وهل يوجد عاقل فى أى عصر من العصور تتكشف له وجوه اليقين . وينحرف عنها . انسياقا وراء شهوة عجلى . دلت التجارب والمشاهدات على أنها وليدة بائدة .

أؤكد أن دقيانوس نفسه . لو بعث الآن . وخير بين ملكه . أو مصاحبة الفتية الذين طاردهم . لكان أسبقهم إلى الكهف . حتى ولو تقلب فيه على شوك القتاد عريانا . بل لما استنكف أن يكون هو الكلب المجدود .

إذن فلا عذر لمن تحقق من ذلك . فيما يبدو عليه من التقصير فى الأخذ بالأسباب التى رفعت من شأن أهل الكهف . واستحقوا بها ما استحقوا من كرامة . وكانت قصتهم المثل الأعلى فى الإيمان . ترتل فتأخذ بمجامع القلوب والألباب .

قوة إيمانهم وتسفيههم المشركين

لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا

أجل فقد خلعوا الأغيار ، وتبرأوا من الشركاء إيثاراً لما يقضى به العقل . فهلا أدرت للخلف عجلة الزمن ، وتغلغلت فى أعماق الماضى آلاف السنين ، وأرهفت سمعك إلى أعذب أنشودة يترنم بها المؤمنون فى ناديهم ، فتتهادى نحو نغمها القلوب ، وتهفو الأفئدة . وتصيخ المشاعر لتوقيعها الشجى ، وجرسها الطروب « لن ندعو من دونه إلهاً » بخ بخ ، إيمان وتوحيد ، فلله ما أجمل افتضاض السرائر ، وأسمى البيان .

تهكمهم بمن يتخذ آلهة من دون الله

هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً

أى والله ، هكذا يكون الإيمان ، وهكذا يتخذ العاقل لنفسه ربيئة تدرأ عنه ضلال الشرك ، ولاريب فى أن صادق الإيمان ، لايحجم أن يشنأ أقرب الناس إليه ، فى سبيل عقيدته ، فلا أبويه ولا أبناءه ، ولا لداته ، ولا إخوانه تكون لهم منزلة فى قلبه إذا اصطدمت عقيدتهم بعقيدته « قل لو كان آباؤكم ، أو أبناؤكم ، أو عشيرتكم . . الآية » لأن الإيمان بالله ، هو ـ خلع الغيرية ـ والفناء فى حب الله ، وكل تعارض مع ذلك ، لايتسق وإياه ، وهذا من قبيل تعارض العناصر ، فلا يتحد عنصر بعنصر ، لايتفق معدنه معه ، مهما برع الصهر والمزج .

تدليلهم على أن المشركين لايعتمدون على حجة

لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ (١)

وهكذا ادرك فتية الكهف أن الألوهية تقتضى القدرة التامة ،

(١) قال العلامة أبو السعود :
لولا يأتون : « تحضيض فيه معنى الانكار والتعجيز ، أى هلا يأتون »
عليهم : « على ألوهيتهم ، أو على صحة اتخاذهم لها آلهة »
بسلطان بين : « بحجة ظاهرة الدلالة على مدعاهم ، وهو تبكيت لهم وإلقام حجر »

والتصرف المطلق وليست هى مجرد أوهام ، وخيالات ، وأيضاً فإن من مقتضياتها إقامة الأدلة القاطعة على هيمنتها على شئون الخلق ، ومقدراته كلها ، وحركاته وسكناته ، وبذلك يكون الإيمان قويا لا يتزعزع ، إذ لا مراء فى أن الإيمان إذا لم يقم على الحجة والإقناع كان إيمانا ، غير وثيق ، لذلك تأمل أصحاب الكهف فى ملكوت الله ، وسبحوا بعقولهم ، فى آفاق السموات والأرض ، مستقرئين فوق صفحتها قدرة الخالق ، وتفرده بالربوبية ، ولما استيقنت أنفسهم ذلك آمنوا واستسلموا ولمسوا مبلغ فساد عقيدة قومهم ، ومدى فسولتها ، فهذه السموات والأرض خاصة ، وما وراءها من أكوان ، كلها صوى ومعالم على قدرة الله وعظمته ووحدانيته ، فأين إذن الآثار التى تنطق بألوهية أدعياء قومهم ؟ ألا سحقاً لما يقترفون .

عودهم بالتأنيب على المشركين بعد دحض مفترياتهم

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً

فهذا دليل ما بعده دليل على افتراء وكذب كل من يعتنق عقيدة لا تقوم على صدقها أدلة صحيحة ، مستمدة من الوقائع والمشاهدات ، أما أولئك الذين يطيرون خلف كل ناعق ، فإنك لو عصرت نفوسهم عصراً ، لما جادت بقطرة واحدة من الإيمان ، وهم فى الواقع أصل كل بلاء ، فلا يفوتون فرصة تسنح لارتكاب جريمة مهما كان نوعها ، اجتماعية ، أو خلقية ، أو دينية ، وأيان يحجم الزنديق عن موبقة ؟ !

وَاذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ الاَّ اللهَ

سبق أن أشرنا إلى أن المؤمن لا يوالى بحال من الأحوال من يخالف اعتقاده ، مهما كانت له حظوة لديه ، ومهما كان أثيراً عزيزاً ، لأن ولاية الله تعالى ، فوق نفثات العواطف ، وخوالج القلوب ، وأبرز من الآمال والأمانى الذاتية ، فأينما كانت المخالفة ، كان الاجتواء ، وهذا ما حفز أولئك الفتية الرفهون على العزوف عن أبهة الحياة وزخارفها ، ونبذ لين العيش ، وسطوة الجاه ، إلى الخشونة واللأواء .

فيا للإنسان من الطغام ، تتضافر جميع الدلائل المادية والمعنوية على قدرة الله تعالى ووحدانيته ، وهم مع ذلك سادرون فى عمايتهم ، يركبون كل آبدة ، ويجمحون مع كل شاردة ، ولو أدى بهم آخر المطاف إلى التحطم والانحلال .

الدعوى إلى تجنب الأشرار

فَأْوُوا الى الْكَهْفِ

لقد عرف عن عظماء الأمم قديماً وحديثاً أنهم يركنون إلى الوحدة والانفراد عن غوغاء الاجتماع الصاخب ، كلما اقتضاهم إلى ذلك أمر ، أو تبدت لهم آفاق دعوة عامة ، تضع للإنسان قاعدة من المنفعة على أى وجه ، لأن الوحدة محك القرائح ، ومشعل الأذهان ، ومنتدى الأفكار وهى الجنة التى تعصم القلوب عن التشتت .

هذا ، وإن الواجب أن يتجنب المؤمن الأشرار إذا ترتب على البقاء بين ظهرانيهم خطر على دينه .

حماية الله للذين يستجيبون له ، ورحمته بهم ونصره لهم

يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقاً

استقرىء آثار الماضى والحاضر ، منذ خلق الله السموات والأرض تروى لك أصدق الأحاديث الشيقة ، فى نصرة الله تعالى لعباده المؤمنين ، وإفاضة المكرمات عليهم أحياء وأمواتاً ، كى تتأسى خطوهم ، وتنبذ العوارض التى تقف حجر عثرة فى طريق بلوغك أسمى ما يطمح إليه العقلاء .

حال الفتية فى الكهف

وَتَرَى الشَّمْسَ اذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَاذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ ، وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ (١) مِنْهُ

فقد ذهبت الدنيا بعيداً فى هذه الصورة البديعة ، التى قامت تنطق آيات سماوية ، مقدسة عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات فكانت لهم أجمل البشرى ، وأعظم المثوبة .

تركوا ما تركوا من جنات وعيون ، وسطوة وجاه ، ورفاهة وزينة ، ودمقس وديباج ، ومراكز مرموقة تتقطع دونها أعناق الطامحين ، نظروا حولهم ، فهالهم أن يروا ما يحدق بهم من زينة الحياة ، يحمل فى طياته معنى

(١) « تزاور » أى تتزاور وتتنحى ، بحذف إحدى التاءين ، وقرىء بادغام التاء فى الزاى ، وتزور كتحمر ، وتزوار كتحمار ، وتزوئر ، وكلها من الزور ، وهو الميل « تقرضهم » أى تقطعهم ، من القطيعة والصرم ، ولا تقربهم .

الفناء والزوال ، كما تزول الرؤى ، وهواجس الأمانى ، وأن شيئاً واحداً هو الخليق بالتشبث والهيام ، لا يزول ولا يفنى ، تتركز فيه السعادة الحقة ، وتناط بأهدابه الحياة ، التى خلق لها الإنسان : هو الإيمان الخالص ، برب الأنام . وضحت لهم هذه الحقيقة ، فأنفوا أن تنحط مكانتهم إلى درك الاغترار بتزاويق خيالية ، واستبدالها بمقومات الكمال والرفعة ، فسخروا بلألاء الحياة . وبريقها الخلاب ، والتجأوا إلى الكهف ، يقابلون فيه عوامل الطبيعة ، وتقلبات الجواء (١) مطمئنين مستبشرين ، ينشدون رضوان الله ، ويقومون أحراراً بفروض الطاعة والتعبد ، مسلمين أمرهم لمن بيده ملكوت السموات والأرض .

إلفات إلى ما انطوت عليه آيات أهل الكهف من قدرة الله

ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ

من المقرر أن الناس تتفاوت درجاتهم العقلية ، كما تتفاوت درجاتهم المعيشية ، وتتباين طبائعهم تبايناً متفاوتاً ، كل حسب استعداده الفطرى ، ولذا فإن لكل وجهة خاصة ، وإحساس مستقل ، حتى ولو جمعهم غرض واحد ، فلو اتفق اثنان على نتيجة ، فقد تفرقهما المقدمات ، وقل أن يتفقا اتفاقاً كلياً ، بحيث لو تحرك أحدهما حركة ، قابلها آخر بمثلها ، وقد سبقتها فى نفسه المشاعر التى قامت فى نفس الآخر ، وهذا ينطبق على جميع الأشياء التى تقع تحت حس الإنسان وعقله .

(١) لا يتعارض هذا مع ما ذهبت إليه التفاسير : من أن الشمس كانت تجانبهم ؛ ولا تسمهم بحرارتها المحرقة ؛ فذلك بالنسبة إلى أن كل من يقف موقفهم ، لا بد أنه يتعرض للتقلبات الجوية ؛ فاذا حفظ الله أصحاب الكهف مما يلحق غيرهم لا محالة ؛ فانه فضل منه تعالى ورحمة ؛ إظهاراً لآياته ؛ وتجلية لقدرته ؛ وهذا بالطبع خارج عن نطاق تصورهم حينما التجأوا إلى الكهف ؛ فان تطبيق سنن الطبيعة لا يستثنى منه أحد إلا بارادة الاله القيوم . وقد أثر أن من الارهاصات المحمدية تظليل الغمام إياه أينما سار صلى الله عليه وسلم .

يسمع السامع عبارة أو يقرأها ، فيفهمها بطريقة تغاير طريقة غيره ، ممن سمعها أوقرأها ، وربما اختلفت بينهما الغاية أيضاً . حسب استعداد الإنسان لإدراك الحقيقة . سواء كان على وجهها ، أو لا .

خلق الله تعالى الخلائق إظهاراً لربوبيته المقدسة ، ووحدانيته الصمدانية ، ووجوده الأحدى ؛ وفرض عليهم عبادته ، وقيدها بالفضائل والكمال ؛ فمن الخلق من عبادته معنوية كالجماد ، ومنهم عبادته بالإلهام كالحيوانات اللاعاقلة ، ومنهم عبادته تشبه عبادة الإنسان ، ولا ندرى على وجه التدقيق ، مدى هذا الشبه ، غاية ماوصل إليه علمنا ماورد فى التنزيل « وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن ، فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجباً ، يهدى إلى الرشد ، فآمنا به » ، فهو يعطينا صورة مكبرة لإيمان الجن القائم على تدبر وعقل . ومنهم عبادته ارتكزت على العقل ، واتخذت طابع البحث والدرس وهى عبادة الإنسان . وقد أشار كتاب الله العزيز إلى ذلك ، فى آية قيمة ، كشفت سرا من أسرار العبادة ، لاترقى العقول إلى مكونه إلا بنص إلهى كريم « ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض ، والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب ، وكثير من الناس ، وكثير حق عليه العذاب ، ومن يهن الله فماله من مكرم ، إن الله يفعل مايشاء » .

وإن علمنا المحدود بعبادة المخلوقات الأخرى ، يضطرنا على أن نمسك عن الإفاضة التى ينساق إليها الحديث قسراً ، حينما يقتضى المقام الإشارة إلى التعبد الإنسانى ، بحكم الصلة والمعرفة ، وبحكم أنها أساس العبادة وعليها يدور محور التكليف .

فالإنسان يمر فى حياته بالطور الأول ، وهو فى دور تنشئة وتنمية

ثم ينتقل إلى دور الإعداد والتكوين العملى ، أو التوجيه الأدبى والاجتماعى ، كيفما تهدف إليه رغبة الفطرة ، وما تجنح إليه عادته الوراثية ، سواء امتزجت بها عادات مكتسبة من البيئة الخارجية ، وسواء طغت عليها بمؤثراتها أو لم تطغ ، فقد يرث الإنسان عادة كريمة ، فيفسدها عليه الوسط ويحيلها إلى عادة لئيمة ، وقد يرث عادة كذلك ، فيقومها الوسط ، ويحيلها إلى عادة نبيلة ، إن لم يكن بالطبع فبالتطبع . وعند ما يبلغ الانسان رشده ، تبدأ معركة العقل ، وبعبارة أوضح يتجرد العقل لتأدية وظيفته ، ويتجلى استعداده لإدراك الحقائق ، كما أشرنا فى صدر هذا البحث .

فقد تشرق شمس الرسالة ، وتنتشر دعوتها آيات بينات . وهنا تنقسم عقلية الأمة إلى أقسام متفاوتة :

(ا) عقلية ممتازة قوية سريعة الإدراك والتأثر بالحقائق ، واستخلاص المفهومات ، والمقارنة بين الخطأ والصواب ، والشك واليقين ، والصدق والكذب ، والهدى والضلال ، وهى عقلية الموحدين الجهابذة الذين صفت نفوسهم ، وسمت طبائعهم ، وبذلك استحقوا عن جدارة اللقلب العلمى ، وانتظمت فى أفكارهم المقاييس ، واعتدلت موازين الآراء ، وانعكست عليها أضواء المعرفة ، فكانت أمنع عاصم لهم عن الخروج على سنن العقل ، وأقوى حافز على الإقرار بالحق ، والرجوع إليه ، ومن أبصر من العلماء لآفاق آيات الله القريبة والبعيدة .

(ب) عقلية متوسطة بطيئة الإدراك والفهم ، تقوم رواسب الطبع ، وأثقال المادة حائلا دون صفاء الذهن ، ومانعاً للعقل عن أداء وظيفته لأول وهلة ، وهى عقلية مستعدة للتثقيف إذا جليت لها الحقيقة

فى صورة تستطيع تكييفها وهضمها ، فلا تتردد فى الإذعان والاستسلام ، كهذا التغيير الكلى الذى يطرأ على من تتكشف له حقائق كانت محجبة عنه .

(ح) عقلية أقل من المتوسط ، فيها بصيص من الإشعاع ، وهى عقلية الدهماء ، ومن فى حكمهم ، وقد يكون إدراكها ومعرفتها وليد التقليد ، أو ملابساً للمشاهدات المرئية ، والطوارىء الملموسة ، وهذه يتخذ ذووها فى مسلكهم الخاص والعام أسلوبا يتفق ومايهيمن على مشاعرهم من لين العريكة ، وسهولة المراس ، فى اتباع مايدعون إليه ، إذا تأثرت به عواطفهم ولمس مكامن الهوى ، دون تدقيق فى مدى مايدعمه من أدلة وبراهين . لذلك فقد سلك القرآن الكريم فى تعاليمه وإرشاداته جميع المسالك التى تلائم مختلف العقول . وهذا من الأدلة القائمة على أنه من لدن حكيم خبير .

(د) عقلية صماء مطبقة ، متبلدة متداعية عمياء ، ران عليها ظلام الجهل فتقلصت ، وقضمها خور البهيمية فارتكست ، وهى عقلية الجاحدين الأغبياء ، الذين تسلطت عليهم الهواجس والأوهام ، ونظروا إلى الحقائق بمنظار أسود ، من زاوية الشكوك والريب ، وتأملوها من كوة الشهوات . وأولئك هم موطن الخطر الخلقى والاجتماعى ، لأنهم موئل الجهل والإجرام ، لأن عقولهم لم تتسع لتثقيف العلم والعرفان ، أى التوحيد والإيمان ، أى معرفة الخلاق الأعلى ، بما فى أكوانه تعالى من صوى وأمارات ، وما ازدهر فى كتابه المكنون من هدى وإرشاد .

يتناول العلماء دعوة الرسل بالبحث والدرس ، والقياس والاستنباط ،

والمقابلة والمقارنة ، حتى إذا أقرت عقولهم بصدق الدعوة ، عمدوا إلى نصوصها ، يشرحون مايخفى منها على أذهان العامة ، ويؤولون مايدق فهمه على بعض العقول ، يناظرون ويفلسفون ، يجادلون ويحاورون ، ويقرعون الحجة بالحجة ، ويفلون الدليل بالدليل ، والإنسانية من ورائهم تقطف ثمار هذا وذاك ، وترشف من معين هؤلاء وهؤلاء ، فمن كان فيه الاستعداد للتثقيف والعلم وصل وآمن ، ومن رسبت به عوادى الوراثة ، أوعوارض البيئة ، فتخطى صفوف العقلاء ، ضل مع الهالكين .

وهذه حجتنا على ماذهبنا إليه نتلوها آيات كريمة كشفت من التاريخ أستاراً ، تشع منها أضواء فتية آمنوا بربهم ، ولم يدعوا مذهباً من مذاهب التقوى والورع والفناء فى الله إلا يموا صوبه ، أبلغ مايكون السرى ، وأوغل مايكون التوجه ، غيرعابئين بشىء ، اللهم إلا أن تتدانى لهم مشتهيات القرب . فهل ثمة مايمس العواطف ، وينير العقول ، أعظم من هذا المثل العالى « ذلك من آيات الله (١) » وماذا يكون موضع من يعمى عنه بين الأسرة الإنسانية ؟

---

(١) قال العلامة أبو السعود فى تفسير هذه الآية : « ذلك » أى ماصنع الله بهم من تزاور الشمس وقرضها ، حالتى الطلوع والغروب ، مع كونهم فى موقع شعاعها « من آيات الله » العجيبة الدالة على كمال علمه وقدرته ، وحقية التوحيد ، وكرامة أهله عنده ، سبحانه وتعالى . وهذا قبل أن سد دقيانوس باب الكهف ، وقيل : كان باب الكهف ، شمالياً ، مستقبل بنات نعش ، وأقرب المشارق والمغارب إلى محاذاته رأس مشرق السرطان ومغربه ؛ والشمس إذا كان مدارها مدراه تطلع مائلة عنه ، مقابلة لجانبه الأيمن ، وهو الذى يلى المغرب ؛ وتغرب محاذية لجانبه الأيسر ، فيقع شعاعها على جنبيه ، وتحلل عفوته ، وتعدل هواءه ، ولايقع عليهم ، فيؤذى أجسادهم ، ويبلى ثيابهم ، ولعل ميل الباب إلى جانب الغرب ، كان أكثر ، ولذلك وقع التزاور على كهفهم والقرض على أنفسهم ، فذلك حينئذ إشارة إلى إيوائهم إلى كهف هذا شأنه . وأماجعله إشارة إلى حفظ الله سبحانه إياهم فى هذا الكهف تلك المدة الطويلة ، أو إلى إطلاعه سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم على أخبارهم ، فلايساعده إيراده ، فى تضاعيف القصة »

تقرير أن الهادى هو الله وحده

مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِداً

لقد علمت مما تقدم أن كتاب الله تعالى نشر على الانسانية أضواء الهداية ، ونور المعرفة ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وطبعاً فهذه هى الهداية الصحيحة التى تنتزع الانسان من مخالب الفوضى ، والانهيار ، هداية واضحة ، لا تضيرها شوائب ، ولا تغشاها سحب .

وعلمت أن الإله الحكيم ، تفضل على عباده بهذه الهداية ، رحمة من لدنه وكرماً ، فلو سايرنا شقشقة المنطق ، وافترضنا أن المولى سبحانه ترك عباده سوائم ضوال ، وهذا أمر بعيد الاحتمال بداهة ، لبعده عن قوانين العقل ، فمنذا يستطيع إذن القيام بهذه المهمة الضرورية ، ! إذن لا جدال فى أن « من يهدى الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً » .

فلا مراء فى أن الحياة الدنيا قد حفتها أخطار جسيمة ، إن لم يتوقاها الانسان ، تهدم كيانه ، وتجنى عليه الوبال ، ومعنى ضياع الفرد ، ضياع المجموع ، ولما كان المرء مهما سما عقله ، لا يتأتى له أن يميز من تلقاء نفسه بين الخير والشر ، وأن البشر أعجز من أن يحددوا الحدود ، ويشرعوا النظم الدينية والخلقية والاجتماعية ، لذلك اقتضت حكمة الله تعالى ، تمشياً مع سنن العقل ، أن يكون ذلك عن طريق رسل كونهم تكويناً ممتازاً ، وجملهم بخلق كامل ، وأدب جم ، وفطرهم على الفضيلة والرقى .

ولقد مثل أهل الكهف هذه الهداية ، أروع تمثيل ، فلم يزعزع إيمانهم

رغبة ولا رهبة ، ولم يلوهم عن قصدهم الأسمى ، مراكز ، ولا وعود أو وعيد ، أما الرحمة واللطف ، فلن يستشرفها باحث متجلية فى غير قوله تعالى : « فلن تجد له ولياً مرشداً » .

نماذج من آثار قدرة الله

وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ، وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ، وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ (١)

فإن فحصت الدنيا فحصاً ، وذرعتها ذرعة ويسرة ، فانى انتهى بك السرى ، فانك تجد آثار قدرة الله العظيم وهدايته ماثلة ناطقة فى سامق الدوح وبارض العشب ، فى شامخ القنن ، ومنبسط الوديان ، فى ذرات سابحة ، وعمالقة فارعة ، فى كواكب زاهية ، وأقمار متلألئة ، فى صوى الأرض ، وعلامات السماء .

فمن يتأمل كنه هذه الآية الشريفة ، ويتدبر مغزاها الكريم ، فإنه لا يقوى ، ولو مالأته الأبالسة ، على الأخذ بحجز قلبه عن الإقرار بوحدانية الله تعالى ، والإيمان بقدرته التامة ، فهى ناطق مبين على تفرد الإله بالقدرة القادرة ، التى تستدعيها الوحدانية الإلهية ، واجب الوجود ، المعبود بحق ، الذى تعلقت قدرته بإنامة فتية الكهف البررة هذه المدة الخارقة للعادة ، وبعثهم منها ، ليمثلوا بأشخاصهم ، أبرز الشواهد على قدرته تعالى ، وليس فى ذلك ما يخالف المعقول ، طالما توافرت الدواعى لحفظ الجرم المادى عن

---

(١) : الوصيد موضع الباب من الكهف

التحلل والتفتت ، وكأنى بهؤلاء الذين اكتشفوا مواد التحنيط لبقاء الجسوم محتفظة بكيانها الوجودى آلاف السنين ، قد هداهم الإله إلى هذا الاكتشاف للتدليل على قدرته جل ثناؤه إنامة أهل الكهف الزمن الذى أشار إليه القرآن المبين ، وليس بعزيز على الذى منح الأشباح أرواحها ، أن يحفظها متحركة وساكنة .

« سنريهم آياتنا فى الآفاق ، وفى أنفسهم » .

وإلى جانب ذلك ، ففى هذه الآية ملاحظة دقيقة : فلو رام أجحف القاسطين أن يوازن بين الكلب (١) الذى رافق فتية خلفوا وراءهم الدنيا ، بمحافلها الصاخبة ، وبين « دقيانوس » ذلك الملك الطاغية العاتى الشرير ، لما اهتدى إلى حيلة يساوى بها بينهما فى المكانة والمقام ، ولرجحت دائما كفة الكلب ، مهما ضلل وأقسط ـ كلب ، وملك ـ لا جامعة بينهما فى التقدير الحيوانى ، بيد أن بينهما فارقاً شاسعاً فى الفضل ، حتى ليعز الأمل على الملك أن تسعفه الصيرورة الكلبية ، التى تحميه من عقاب السعير . وإذ خلصت هذه القضية من المكابرة والتعنت ، وارتفعت منزلة الكلب على الملك لمجرد اتباعه البررة التقاة ، فثمة مثل عليا فى التواضع ، ولين الجانب ، ورقة الشعور ، وسمو النفس ، وجلال الانسانية ، أضاء مشاعلها فتية

---

[١] قال العلامة أبو السعود : « قيل : هو كلب مروا به فتبعهم ؛ فطردوه مراراً ؛ فلم يرجع ، ؛ فأنطقه الله تعالى فقال : : لا تخشوا جانبى ؛ فانى أحب أحباء الله تعالى فناموا حتى أحرسكم وقيل : هو كلب راع قد تبعهم على دينهم ويؤيده قراءة : كالبهم إذ الظاهر لحوقه بهم وقيل هو كلب صيد أحدهم أو زرعه أو غنمه واختلف فى لونه فقيل كان أحمر وقيل أصفر وقيل أصهب وقيل غير ذلك وقيل كان اسمه قطمير وقيل ريان وقيل تتوه وقيل قطمور وقيل ثور قال خالد بن معدان ليس فى الجنة من الدواب إلا كلب أصحاب الكهف وحمار بلعم وقيل لم يكن ذلك من جنس الكلاب بل كان أسداً » .

الكهف . بقبول راع صاحباً ورفيقاً ، وهم ماهم ، مركزاً ، ووجاهة ؛ ولكنها الوحدانية الصمدانية . أنى تنبثق فى قلب ، تستخرج منه غواشي الغطرسة والكبرياء ، وتمسح عن البشرية فوارق الجنسية ، وكثافة الأنانية ، ولا تقر فضلا لأحد على أحد ، إلا حيث كانت التقوى ؛ فالناس فى حدودها سواسية كأسنان المشط .

إحاطة الهيبة بأصحاب الكهف

لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً (١)

وكما أن الوحدانية تسوى بين العباد جميعاً ، فإنها أيضاً تضفى على ذويها حلل الوقار ، وتحيطهم بهالة من الهيبة والجلال .

فى مشاهداتنا الدنيوية ، تبدو ظاهرة من مظاهر الهيبة التى يكتسبها الانسان من الانسان ، والاستشهاد بها يقرب إلى الأذهان ما ينغلق عليها من الحقائق المعنوية ، فقد نشاهد خواص ملك من ملوك الدنيا ، وبطانته مثلا ، أينما استقر بهم المقام ، فأنهم يكونون موضع الإكبار والهيبة ، وتكون لهم الصدارة والتكريم ، فكيف بأحباء الله وخلصائه من خيرة

(١) « كانت أعينهم مفتحة كالمستيقظ الذى يريد أن يتكلم وقيل لطول أظفارهم وشعورهم ولا يساعده قولهم « لبثنا يوماً أو بعض يوم » وقوله (ولا يشعرن بكم أحداً) فان الظاهر من ذلك عدم اختلاف أحوالهم فى أنفسهم وقيل : لعظم أجرامهم »

وعن معاوية لما غزا الروم فمر بالكهف قال لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم فقال له ابن عباس رضى الله عنهما ليس لك ذلك قد منع الله تعالى من هو خير منك حيث قال لو اطلعت عليهم الآية قال معاوية لا انتهى حتى أعلم علمهم فبعث ناساً وقال لهم اذهبوا فانظروا ففعلوا فلما دخلوا الكهف بعث الله تعالى ريحا فأحرقتهم ا هـ

العباد ؛ أحسب أن دون جزلهم تتقطع أعناق العواهل والأقيال

فإذا طوينا مراحل العصور منذ آلاف السنين ، وأشرفنا على كثب من عصر أمراء المؤمنين ، لألفينا عمر بن الخطاب يملأ رئتيه من الزهد فى الدنيا لأنه لمس حقيقتها كما أراد الله أن يلمسها المؤمنون فتقشف ما وسعه التقشف والشمس لا تغرب عن ملكه والرفاهية دانية القطوف إن رامها والسطوة « الدقيانوسية » لا تخطئه إن رغبها فيعزف عن وثير الفراش وصوارم الحراس ويذهب إلى خارج المدينة ليتخذ من بطاحها مهاداً ومن صعيدها فراشاً ؛ حتى إذا أسلم جنبه للأرض ، وغط فى النوم بدا على رمية حجر منه ، هزبر مفترس يدرأ الشر عن إنسان نافح عن الدين بكل ما وسعه جهده وبطشه ؛ فلما وفد إليه أحد ممثلى أقيال الفرنج وأخبر عن مكانه يمم صوبه ؛ لإنجاز مهمة دبلوماسية فهاله أن يرى أمير المؤمنين الذى تتزلزل الأرض تحت أقدام جحافله وترتج دعائم المعمورة أن يزم أساريره يراه يفترش الغبراء ويتوسد ذراعه وعلى مقربة منه وحش ضار ؛ لامتوثباً للافتراس ولكن مقعياً رهبة وخشوعاً للحراس ؛ ولم يتمالك أن نطق لسانه بهذه القولة الذائعة « عدلت فأمنت فنمت »

فلو عرف موحدو ذى الجلال والإكرام أن يستغلوا ما أودع الله فيهم من أسرار العلو والعزة لما مضى زمن طويل حتى تكون لهم الزعامة العالمية ، كما كانت لأسلافهم السابقين . ألا اطلعت على ماسجله التاريخ الدينى لمبعوث النبى صلى الله عليه وسلم إلى دعوة إحدى أمتين كانتا تتقاسمان سيادة الدنيا ، وكيف لم يأبه لهذه المظاهر المهيبة التى أراد عاهل الأمة أن يفجأه بها ليؤثر فى نفسه ، ويملى عليه رغبته ؛ ولكن نائب النبى العظيم جرد سيفه وأملى شرطه : إما الطاعة ، وإما السيف فأين المسلمون الآن من هذا الجلال .

هيمنة القدرة على شئون الحياة المادية والمعنوية

وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ (١)

فقد اقتضت حكمة الله تعالى ـ مسايرة للسنن العقلية ـ أن يربط البقاء الكونى بمؤثرات خارجية تتركز الحياة عليها مجتمعة ، بحيث لو وقع خلل فى إحداها ـ وذلك بالطبع بعيد الاحتمال ، مادامت إرادة الله متعلقة بدوام الحياة ـ تحلت ظواهر هذا الخلل فى الناحية التى ارتبطت بها الحياة : فالشموس ، والأقمار ، والكواكب على تباين أجرامها ، والأنواء ، والأمطار على اختلاف درجاتها ، وذلك كله مظاهر الجواء للقدرة الإلهية ، والأنهار ، والجبال ، والشجر ، والمدر ، والحيوان ، والنبات ، وما اليها من المظاهر الأرضية لقدرة الخلاق العظيم ، وجميعها يسير على وتيرة من الدقة لايعتورها الخلل والارتباك بحال من الأحوال . وقد تضافرت جميع هذه العوامل لبقاء النوع الانسانى . وهذه العوامل الخارجية ، تقابلها عوامل أخرى لاتنفك عن الانسان ، ولاتريمه طالما تنبض فيه الحياة : كالنوم ، واليقظة ، والصحة ، والسقم ، والحركة ، والسكنة ، والقيام والقعود ، والإقبال والإدبار ، والأكل والشرب ، ومايتخلف عنهما من براز وبول ، والسرور والحزن ، والعبوس والابتسام ، وكلها أحوال لا فضل للإنسان فى تجليها إلا كفضل الآلة فى التنفيذ (٢) فاذا أرق الانسان أرقاً يخرق العادة ، لتعلق إرادة الله تعالى بإظهار قدرته فى هذه الناحية ، فلن توجد قوة على وجه الأرض ، تستطيع أن تذيق جفنه ظل من النوم ، ولواستغرق

(١) « ليتساءلوا بينهم . أى ليسأل بعضهم بعضاً ، فيترتب عليه مافصل من الحكم البالغة »

(٢) سنفيض الحديث فى هذا المعنى عند قوله تعالى . « ولاتقولن لشىء إنى فاعل ذلك غدا » إن شاء الله تعالى .

الطب جهده فى التحليل والتعليل والتجارب ، كما أن قدرته تعالى إذا تعلقت بإنامة إنسان بما فوق العادة والمألوف ، لطبع قدرته جل شأنه بطابع الإظهار المادى ، فإن قوة على وجه الأرض ، لاتستطيع أن توقظه مهما أتيحت لها من أسباب العلم وطرقه وشعابه .

البحث فى شأنهم بعد اليقظة ـ وثبات إيمانهم

قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ

إذ علمت ذلك ، فاعلم أنه قد تعترى بعض النفوس عوارض ابتلاء واختبار ، تكون محكا لعقائدهم ، وقوة إيمانهم . فالعقيدة الراسخة لاتتزعزع بعنف الوقائع وقوتها ، بل لاينظر إليها إلامن ناحية الامتهان والسخرية « يوما أو بعض يوم » لله ما أروع الإيمان يقابل الشدائد والابتلاء ، بقلب سليم ، ونفس مطمئنة ، وماذا تنال الحادثات من الأشباح إذا كانت الأرواح سابحة فى رياض الألوهية ، ترشف كؤوس السعادة ، وتتقلب فى أعطاف اليقين ؟ .

تفويض جميع الأمور إلى الله

قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ

فمن واجب المؤمن الصادق والحالة هذه أن يفوض أموره كلها إلى عالم الغيب والشهادة ، وأن لايتمسك بأهداب الحجاج ، فيما لاطائل تحته ، والعاقل الذى يدرك كنه الحقائق على وجهها ، لايغيب عنه أن الإله تعالى هو المهيمن على شئونه كلها ، والمسيطر على حركاته وسكناته ، من نوم

ويقظة وغيرها وليس هناك مايرد عنه قضاءه إذا اختاره لاجتلاء آثار قدرته

تقرير أن التزود لاينافى التوكل

فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ (١)، فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا، فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا

وهكذا ترى أن المؤمن لاتنازعه عاطفة أو رغبة مما يتماسك به الكيان الوجودى ، من : مأكل ومشرب وملبس ومأوى ، طالما تعارض مع إيمانه ؛ بل ويربط جميع أحواله بما يدعم يقينه ، ويفر مما يتوهم أن فيه خطراً على دينه ، وهو أثمن شىء لديه ، ويسد المنافذ المؤدية إلى الشك والاسترابة ، وذلك لايمنع من التزود بالطعام الذى يقيم الأود ، ويمسك الحشاشة . فان التزود لاينافى التوكل بحال .

تجنب أصحاب الكهف المسالك التى تسىء إلى عقائدهم

إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا (٢) عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ ، أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا

وإن المؤمن مهما عجمت عوده المحن والأرزاء ، وسفت به البلايا والفواجع فى سبيل دينه ، فان ذلك لايزيده إلا تمسكا به ، وتعلقاً بأهدابه ،

(١) « قالوه إعراضاً عن التعمق فى البحث ، وإقبالا على ما يهمهم بحسب الحال . والورق الفضة مضروبة أو غير مضروبة » .

(٢) « أى يطلعوا عليكم ، أو يظفروا بكم » .

ولو تمخخت عظامه ، وهرأت جسمه . تبدو صورة ذلك مكبرة ناطقة مما صرح به فتية الكهف بعد بعثهم من رقدتهم الفذة مباشرة ، فانهم مع مامر بهم من خشونة وانقطاع عن العالم ، وسلب يقظتهم التى يستتبعها بالطبع ، بلوغ المآرب . واجتناء المشتهيات لم يشغلوا أذهانهم بما آلت إليه حالتهم ، بل نبذوا تجاذب أطراف الحديث فى هذا الموضوع ظهريا ، جذارأن يجرهم إلى مالايتفق وعواطفهم الدينية وسكبوا فى آذان العصور ، بأن كل همهم من الحياة لايعدو مايمسك الأود من طيب الطعام زكيه ، ثم لامطمح لهم بعد ذلك إلا التوجه إلى الله عز وجل بكلياتهم وجزئياتهم . وبذلك تحقق لهم الفلاح الذى لايتحقق بدونه مطلقاً .

كشف أمرهم فى عصر غير عصرهم

وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا

فلله أسمى ماخلده « أصحاب الكهف » للعالم من مثل عليا ودروس دينية نياما وأيقاظاً ، متخفين وظاهرين ، وما تجلى فى أشخاصهم ، متحركين وساكنين من قدرة الله سبحانه .

اختلاف الرأى فى شأنهم دليل على علو منزلتهم

إِذْ يَتَنَازَعُونَ أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ

فلا جدال فى أنه عندما ينفذ قضاء الله ، وتبرأ القلوب من وعثاء الشك

بما يبدو من آثار قدرته ، وينكشف غيبه فى الوقت المقدر لذلك ، يتسابق الناس كل يرغب فى أن يتخذ وسيلة للتقرب ممن كان السبب فى تجلى آثار القدرة .

ومن القضايا المسلمة أن الشىء لا يتنازع من أجله إلا إذا بلغت قيمته الدرجة التى يستأهل بها التنازع(١) . فكيف وأصحاب الكهف قد ارتقى شأوهم فوق السماكين ، وتجاوزت درجاتهم الدينية كيوان والسها ، وأى درجة تدانى من يبلغ أمرهم حدود المعجزة ، لاجدال فى أن التنازع فى أمرهم مما يقتضيه المقام ، ويدفع إليه الواقع . وهكذا فان كتاب الله الكريم يعطينا صورة صحيحة من الحقائق المرتبة ترتيباً حكيما . بحيث يحسمها لنا ، فى بناء

---

(١) قال العلامة أبو السعود : « إذ يتنازعون بينهم أمرهم : ليرتفع الخلاف ، ويتبين الحق ، قيل : المتنازع فيه أمر دينهم ، حيث كانوا مختلفين فى البعث ؛ فمن مقر له ، وجاحد به ، وقائل يقول ببعث الأرواح ، دون الأجساد ، وآخر يقول ببعثهما معاً . قيل : كان ملك المدينة حينئذ رجلا صالحاً مؤمناً ، وقد اختلف أهل مملكته فى البعث حسبما نصل ، فدخل الملك بيته ، وأغلق بابه ، ولبس مسحاً ، وجلس على رماد ، وسأل ربه أن يظهر الحق ، فألقى الله عز وجل فى نفس رجل من رعيتهم ، فهدم ماسده دقيانوس باب الكهف ، ليتخذه حظيرة لغنمه ، فعند ذلك بعثهم الله تعالى ، فجرى بينهم من التقاول ما جرى ؛ روى أن المبعوث لما دخل المدينة أخرج الدرهم ليشترى به الطعام ، وكان على ضرب دقيانوس ، فانتهوه بأنه وجد كنزاً ، فذهبوا به إلى الملك ، فقص عليه القصة ، فقال بعضهم : إن آباءنا أخبرونا بأن فتية فروا بدينهم من دقيانوس ، فلعلهم هؤلاء ، فانطلق الملك وأهل المدينة من مسلم وكافر وأبصروهم وكلموهم . ثم قال الفتية للملك : نستودعك الله ، ونعيذك به من شر الانس والجن ؛ ثم رجعوا إلى مضاجعهم فماتوا ؛ فألقى الملك عليهم ثيابه ، وجعل لكل منهم تابوتاً من ذهب ، فرآهم فى المنام كارهين للذهب ، فجعلها من الساج ، وبنا على باب الكهف مسجداً ، وقيل : لما انتهوا إلى الكهف قال لهم الفتى : مكانكم حتى أدخل أولا ، لئلا يفزعوا بدخل ، فعمى عليهم المدخل ، فبنوا ثمة مسجدا . وقيل : المتنازع فيه أمر الفتية قبل بعثهم أى أعثرنا عليهم حين يتذاكرون بينهم أمرهم ؛ وما جرى بينهم وبين دقيانوس من الأحوال والأهوال ، ويتلقون ذلك من الأساطير ، وأفواه الرجال ... »

« بنيانا » لئلا يتطرق إليهم الناس ، ضنا بهم ، ومحافظة عليها » .

ولعل المقصود بالبنيان كالذى نشاهده فى عصرنا من إقامة دشم حول قبر الميت وتحويطه .

محكم التركيب . فانه سبحانه وتعالى عند ما يريد أن يظهر آياته فى الآفاق يهيء من الأسباب العقلية . والمقدمات البرهانية . ما يبهر المؤمنين ، ويمحق مكابرة المعاندين .

اتخاذ قبورهم رمزاً للعبادة

قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا

فالإله الرحيم بعباده . الذى يجازى المحسن بإحسانه . والمسيء بإساءته ، لايمكن بحال من الأحوال أن يضيع أجر من أحسن عملا ، وكيف يتأتى ذلك من الأحد الصمد ، المنزه عن الهوى والغرض ، فانه جل علاه قد كرم أصحاب الكهف وشرفهم أحياء بتثبيت عقيدتهم . ونياما بحفظ أجسادهم من البلى ، وأيقاظا برفع ذكرهم ، وتمجيد أشخاصهم فى دولة الإيمان ، كما كانوا كذلك ، قبل طغيان دقيانوس فى دولته الملحدة ، وأمواتا باتخاذ قبرهم مكانا للتطهر والعبادة ، لتكتنفهم فيوضات الوحدانية أحياءآ وأمواتاً ؛ أما فى الآخرة ، فأى سعادة تنتظر مطيتهم ، وأى جلال يفسح لهم رحابه فى جنات الفردوس ، يحلون فيها من أساور من ذهب ، ويلبسون ثيابا خضراً من سندس وإستبرق متكئين فيها على الأرائك ، نعم الثواب وحسنت مرتفقا

ومن ثم يتبين أن اتخاذ المساجد على قبور الصالحين لم يكن وليد العصور الأخيرة ، وإنما كان مألوفا منذ أقدم العصور ، وذلك فى الواقع أبلغ تكريم لأولئك الذين تفانوا فى عبادة ربهم وطاعته .

الاختلاف فى عددهم

سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ، (١) وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ ، رَجْمًا بِالْغَيْبِ ، وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ

ومن الأدلة التى لاتقبل النقاش على عظمة أهل الكهف ، وبلوغهم أعلا درجات الكمال والرفعة فى الدنيا والآخرة ، اختلاف الناس فى أمرهم اختلافا تناول جميع النواحى التى هى عرضة للاختلاف ، ومن بين هذه النواحى عددهم مطلقا ، وكلبهم ضمناً . وأيم الحق إن تعدد ذكر الكلب فى الوقت الذى لم يشر فيه إلى دقيانوس لاتصريحاً ولاتلميحاً لمن البراهين على أن الحيوانات الملاعقة مهما بلغ الحكم فى نجاستها أو طهارتها ، أفضل من الكافر العاتى « إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا » .

(١) « سيقولون » : الضمير فى الأفعال الثلاثة للخائضين فى قصتهم ، فى عهد النبى عليه الصلاة والسلام ، من أهل الكتاب والمسلمين ، لكن لاعلى وجه إسناد كل منها إلى كلهم ، بل إلى بعضهم « ثلاثة رابعهم كلبهم » أى هم ثلاثة أشخاص رابعهم ، أى جاعلهم أربعة بانضمامه إليهم كلبهم ، قيل : قالته اليهود ، وقيل : قاله السيد من نصارى نجران ، وكان يعقوبياً ، وقرىء : ثلاثة بادغام التاء فى الثاء . « ويقولون خمسة سادسهم كلبهم » قيل : قالته النصارى ، أوالعاقب منهم ، وكان نسطورياً . « رجماً بالغيب » رمياً بالخبر الخفى الذى لامطلع عليه ، أو ظناً بالغيب ، من قولهم : رجم بالظن ، إذا ظن ، وانتصابه على الحالية ، من الضمير فى الفعلين جميعاً ، أى راجمين ، أوعلى المصدرية منهما ، فان الرجم والقول واحد أو من محذوف مستأنف ، واقع موقع الحال من ضمير الفعلين معاً ، أى يرجمون رجماً ، وعدم إيراد الواو للاكتفاء بعطفه على ما فيه ذلك » . « ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم » هو ما يقوله المسلمون بطريق التلقى من هذا الوحى ، ومافيه مما يرشد إلى ذلك من عدم نظمه فى سلك الرجم بالغيب ، وتغيير سبكه بزيادة الواو المفيدة ، لزيادة وكادة النسبة ، فيما بين طرفيها ، لابوحى كما قيل » .

بيان أسمائهم

قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ (١)

لانزاع فى أن الله وحده هو الذى لايعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، فاذا أراد جل شأنه أن يكشف عن مكنون غيبه إظهاراً لربوبيته القادرة ، هيأ عباداً لهذا الفضل العظيم ، يطلعهم بمقاييس علمية وعقلية ، يهديهم إليها ، على القدر الذى به يستقر الحق فى نصابه ، ويبدد عن الأرض حوالك العماية والجهل ، ويتخذ هؤلاء العلماء من معرفتهم مشعلا يضيئون به للجهلاء ما أظلم أمامهم من مسالك الهدى والرشاد ، فمن كان مستعداً للفهم والإدراك(٢) ، اهتدى بهديهم ، وتجنب المزالق الخطرة ، ومن كسفت فى قلبه نسج الغواية المادية ، لايستطيع تكيف الحقائق ، بل لاتزيده الأدلة إلا جحوداً وعماية ، وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا » .

فللعلماء فى كل العصور آثار خالدة ، فما انتشرت دعوة إلا ولهم فى نشرها ضلع ، ولا نجح الزعماء والقادة إلا بجهودهم ، ولا ازدهر عمران إلا على أكتافهم ، وبقواهم العقلية الموفقة ، وشدة تأثيرهم فى الأفراد والجماعات .

(١) « إلا قليل » : من الناس ، قد وفقهم الله تعالى للاستشهاد بتلك الشواهد ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : حين وقعت الواو انقطعت العدة ، وعليه مدار قوله رضى الله عنه : أنا من ذلك القليل ، ولو كان فى ذلك وحى آخر لما خفى عليه ، ولما احتاج إلى الاستشهاد بالواو ، ولكان المسلمون اسوة له فى العلم بذلك ، وعن على كرم الله وجهه : إنهم سبعة نفر ، أسماؤهم : (يمليخا ـ ومكشيينا ـ ومشليينا ـ هؤلاء اصحاب يمين الملك ، وكان عن يساره : مرنوش ـ ودبرنوش ـ وشاذنوش ـ وكان يستشير هؤلاء الستة فى أمره ، والسابع الراعى الذى رافقهم حين هربوا من ملكهم « دقيانوس » واسمه : كفيشيططيوش » .

(٢) انظر ص ٣٩ـ٤٠ عند تقسيم العقليات .

النهى عن التعميق فى المجادلة فيهم

فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا ، وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا(١)

فقد تظهر الحقائق ظهور الشمس فى رائعة النهار ؛ حتى لتعتبر المماراة فيها ضرب من المكابرة والانتصار للباطل ، ولما كان المكابرون الذين حرنوا عن الانقياد للعلماء ، قد رضوا لأنفسهم الارتكاس فى حمأة المهانة والسفه كان جدالهم لاطائل تحته ، لأن كل برهان قد يستحيل فى عقولهم المادية إلى لاشىء ، وسرعان مايتبخر ، ويتبلور بما وصل إليه تصورهم المعكوس ؛ وهناك كثير من العوامل التى تقسرهم على الاندفاع وراء أهوائهم : منها الغرور بثقافاتهم ، ومنها مما سيمر بك فى مظانه ، حتى لم يبق فى المكابر ذماء من مميزات الإنسانية المهذبة المؤمنة . ومن ثم فمجادلة هؤلاء لا تأتى إلا بنتيجة عكسية ، ولذا فالأجدر إزاء جمودهم أن نجادلوا بالقدر الذى حدده الوحى ، كى لا يتشعب الجدال ، ويخرج عن نطاق المعقول ، فان انقادوا للوحى ، وشعت أضواؤه فى قلوبهم ، وإلا فقد كفاهم ما انحدروا إليه من الجهل والاعتماد على الخيال ، وهذه أرفع تربية فى مجادلة الجاهلين الحمقى .

---

(١) « فلا تمار » الفاء لتفريع النهى على ما قبله ، اى إذ قد عرفت جهل اصحاب القولين الأولين ـ القائلين : ثلاثة ، وخمسة ، فلا تجادلهم « فيهم » فى شأن الفتية « إلا مراء ظاهرا » قدر ما تعرض له الوحى من وصفهم بالرجم بالغيب ، وعدم العلم على الوجه الاجالى ، وتفويض العلم إلى الله سبحانه من غير تصريح بجهلهم ؛ وتفضيح لهم ؛ فانه مما يخل بمكارم الأخلاق « ولا تستفت فيهم » فى شأنهم « منهم » من الخائضين « احدا » فان فيما قص عليك لمندوحة عن ذلك .. الخ

آيات توضح حقيقة ما خفى من أمر أصحاب الكهف

مطالبة العباد تفويض علم الغيب إلى الله

وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا(١)

فمن يتدبر فى ريث وأناة التقليبات التى لابست أهل الكهف ، من صراع بشرى ، ولطف إلهى ، فإنه يتضاءل فى ذات نفسه ، ويشعر بعجزه عن تصريف شئونه الخاصة والعامة ، ويرى إصبع القدرة لا تنفك عنه طرفة عين ، وتبرز فى كل حركة وسكنة ، غالبة فعالة .

فقد تصادف الناس أشياء لا حصر لها ، ترتبط بحياتهم ارتباطاً يرتفع وينخفض بنسبة أهمية الشىء وتفاهته ، فتارة يتصل بالعقيدة ، وتارة بالخلق الفردى ، أو الخلق العام ، وتارة بالحركات والسكنات ، من : قيام وقعود ، وصحو ونوم ، وأكل وشرب ، وصفو وكدر ، وحل وترحال ، وصداقة وخصومة ، وأخذ وعطاء ، وإقراض واستقراض ، وتضايف واستضافة ، وحرب وسلم ، وفقر وثراء ، وعبوس وابتسام ، وصمت وتحدث ، وتآخ وتناذ ، وعذوبة وتزواج ، وعنوسة وترمل ، وصفح وعقاب ، وفرض وواجب ، وسعال وتفل ، وبراز وبول ، وعرى وكسىَ ، وحفاء وتنعل ، وصبر وشكوى ، وأمل وزهد ، ورفه وتقشف ، وجراءة وحذر ، وشجاعة وجبن ، وعزم وخرق ، وإقدام وإحجام ، وبخل وسخاء ، ومنع وإعطاء ،

(١) « غداً » أى فيما يستقبل من الزمان مطلقاً ، فيدخل فيه الغد دخولا أوليا ؛ فانه نزل حين قالت اليهود لقريش سلوه عن الروح ، وعن اصحاب الكهف ، وذى القرنين ، فسألوه عليه الصلاة والسلام ، فقال : ائتونى غداً اخبركم ، ولم يستثن ، فأبطأ عليه الوحى ، حتى شق عليه ، وكذبته قريش

واقتصاد وإسراف ، وتقتير وبذل ، وتعاقد وفسخ ، ووصل وهجر ، وقسوة ورحمة ، وشدة ولين ، وغضب ورضا ، وهزيمة ونصر ، وما إلى كثير مما ذكر ، وما لم يذكر من كل ما يدور عليه محور الحياة ، ولا تنتظم شئونها ، أو تقوم لها قائمة حتى يوضع فى سياج محكمة ، يقرها العقل ، وإن من يبسط تحت نظره الظروف التى تحوطه ، القائم منها فعلا ، وما يجد من وراء الغيب ، ويتأملها بتبصر وهدى ، وينحى عن قلبه غشاوة الشك ، وصدأ الجهل والغباء ، فإنه يتحقق أن ثمة قوة قادرة حكيمة ، تهيمن على الأكوان ، وتسيرها على وتيرة منظمة ، لايتطرق إليها أدنى خلل ، وأن ما يقوم فى روع الجهال من أنهم القادرون على أمورهم كلها ، فى الماضى والحاضر والمستقبل ، ماهو فى الواقع إلا ضرب من الوهم ، يرجع سببه إلى فساد فى العقيدة ، لأن الإنسان ، وإن كان فى وسعه ـ بحكم ماأودع الله تعالى فيه من عقل وإرادة ـ أن يحرك مقلته ، أو يرهف سمعه ، أو يرفع يده ، أو ينقل قدمه ، إلا أنه لا يملك قوة الإبصار ، أو قوة السمع ، أو قوة تحريك اليد والقدم ، كما أنه بداهه لا يملك لنفسه : حياة ، ولا موتاً ، ولا نشوراً .

وهذا درس إلهى من دروس لا تحصى ، لنشعبها حسب الظروف والملابسات ـ فى تربية العقيدة والأخلاق ، وسد الذرائع التى تعقد أمور الناس وأحوالهم ، وتشيع فيها الإهمال والفساد .

فمتى وثق الإنسان أن دورة الزمان بيد الله ، وأن ماكان يخبئه الأمس ، وما يخبئه الغد متأد لعلم الله سبحانه بكنهه وعناصره ، كما تتأدى المبصرات لعلم البشر من حيث مظهرها المادى والمعنوى ، بل إن هذا ليس كذلك تماماً ، إذ كثيراً من المشاهدات ، قد يدق فهم أسرارها على الأذهان ، فإذا وثق الإنسان فى ذلك تورع أن يدعى لنفسه استكناه الغيب ، والتجرؤ على إحالة

الحاضر على المستقبل ومزجهما ، كأنما اطلع على قضاء الله ، واطمأن إلى أن الغد سيحل ، وهو بمنجاة مما يتعرض له الأحياء ، من حادثات السقم أو الحمام ، وفجاءات القدر ، وما يحمله فى طياته من صدمات ليست داخلة فى حسبان البشر ، فكثيراً ما يكون المرء بين أخلائه معافى ، يفيض بشراً ، وأملا ، وصحة : يدبر أمورهم ، ويحل مشاكل ، ويصرف شئون ، ويرجىء إلى الغد ما يشاء ، متثبت جازم ، فلم يكد يبرح مجلسه إلا محمولا ، فاقد الحس ، مضعضع القوى ، وكثيراً مايبيت الإنسان للغد خطة محكمة ، يدرس ملابساتها ومحتملاتها من جميع النواحى ، ويتأكد له صلاحيتها للتنفيذ ، حيث استقامت موادها ، ورتب لها المقدمات ، وهيأ الأهبة ، ولم يبق سوى حلول الغد ، ـ كما صح فى وهمه ـ وهو الظرف الذى وقع عليه اختياره ، لإخراج خطته إلى حيز الوجود ـ فإذا أهل الغد ظهر إصبع القدرة الإلهية ، وغشت أفكاره آراء جديدة تقلب خطة أمسه رأساً على عقب .

وليس معنى ذلك تعطيل الحياة ، وشل حركتها ، ووقف دورة الأعمال الأهلية ، وفى الوزارات ومصالح الحكومة ، تلك الأعمال الآلية ، المرهونة بأوقاتها ، فمثلا يصاغ قرار التوظيف أو العزل ، لسبب من تلك الأسباب المعروفة ، ويرفع إلى الرئيس ليوقع عليه ، وينتقل من قلم لآخر ، حتى يتم تنفيذه فى زمن يطول أو يقصر ، حسب الظروف التى تمر بالقرار اتئاداً أو استعجالا ، فإذا توهم الإنسان أنه بحوله وتدبيره تسير الشئون ، وتنتظم أحوال الاجتماع ، فإنه بهذا الزعم الخاطىء ، يخالف سنن العقل ، ويبيح لنفسه من صفات القدرة مالا يدخل تحت طوق البشر ، ويضع عقيدته مواضع الاتهام ؛ فالمرءوس تحتم عليه وظيفته أن يتناول القرار ، ويملأ

فقراته ، وينقله إلى موظف آخر يختص بالمراجعة أو التسجيل ، وهكذا حتى يأتى دور الرئيس الذى يتناول القلم ، ليؤشر على القرار ، كى يصبح نافذاً .

فإرادة الرئيس والمرءوس ، وتحريك الجفن واليد ، والانتقال ، والمحو والتسجيل من صنيعهما ، غير أنه تنقصهما القوة التى تمد المقلة بالضوء ، والأيدى والأقدام بالحركة ، الخ . ألا تذكر قصة ذلك الحاكم الثائر الذى وقع غريمه فى قبضته ، فأمر بقطع عنقه ، وتهيأت أسباب الإعدام ، من : سيف ، ونطع ، وقبل أن يهوى الجلاد يده ، تأتى البراءة الإلهية ، فيشق أجواز الفضاء صوت المؤذن ، ولم يجد الحاكم بدا من إرجاء التنفيذ حتى يؤوب من صلاته ، بيد أنه لم يكد يسجد ، حتى يبرز من بين المصلين من يغتال الحاكم ، فيصير فى الهالكين ، وينجو أسير بين فكى المنون ، لا يتصور أحد نجاته ، وسبحان الفعال لما يريد .

فالنهى والحالة هذه يدور حول إشعار الإنسان بعجزه ، وأنه لا يملك إمضاء ما يعزمه ، حتى ولو نوى القيام من مجلسه . وليس هناك ما يحول بينه وبين ما انتواه ، فإنه لا يستطيع ذلك ما لم يشاء الله ، وإذا وضع الإنسان مشيئة ربه القادر دائماً نصب عينيه ، برئت عقيدته عن التوهم أن فى طوقه التصرف فى رغباته ، سواء ارتبطت بحاضر الزمان أو مستقبله .

تقرير أن شيئاً لا يتم بغير مشيئة الله

إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ

فكل ما يطويه الزمان : الماضى ، والحال ، والمستقبل فى أضابيره ، مما له ارتباط بالعالم العلوى أو السفلى ، إنما هو لا يقع إلا بمشيئة الله تعالى ، ولو

توقف إنفاذه على شخص معين . سواء توهم أن ماتم بإرادته وحوله ، أو اعتقد أنه إنما يستمد الحركة ممن بيده الموت والحياة .

علاج من ينسى الاستثناء

وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ (١)

ولما كان الإنسان عرضة للنسيان ، لم يأخذ الله عليه مسالك الأمل فى رحمته وغفرانه ، إذا عرض له شأن من شئونه المستقبلة ، ونسى أن يكل أمر تنفيذها إلى مشيئة خالقه العظيم .

وهذا من الأدلة القائمة الملموسة على تنزهه جل شأنه عن الأهواء والأغراض . لأن الإله القادر الرحيم ، أكبر وأعلى ، من أن يعاقب الضعيف العاجز على هفوة لا يلبث أن يتداركها .

تضيق حلقات العوز على المحدود ، فيبرم صوب ذى حيثية يلتمس فى رحابه العون ، فيمنيه بالمساعدة ، ويحيله إلى الغد ، ويطلب صانع إلى زميله أن يتجه من غده إلى مصنع يعينه له ، ليزاول فيه عملا ، ويتفق صديقان على نزهة خلوية بإحدى الحدائق من يومهم أو غدهم ، ويتخذا لها الأهبة

(١) « واذكر ربك » بقولك إن شاء الله متداركاً « إذا نسيت » : إذا فرط منك نسيان ، ثم ذكرته ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما : ولو بعد سنة مالم يحنث ؛ ولذلك جوز تأخير الاستثناء ، وعامة الفقهاء على خلافه إذ لو صح ذلك ، لم تفر إقرار ، ولا طلاق ، ولاعتاق ، ولم يعلم صدق ، ولا كذب . قال القرطبي : هذا فى تدارك التبرك ، والتخلص من الاثم ، وأما الاستثناء المغير للحكم ، فلا يكون إلا متصلا ؛ ويجوز ؛ أن يكون المعنى : واذكر ربك بالتسبيح والاستغفار ، إذا نسيت الاستثناء مبالغة فى الحث عليه . أو اذكر ربك وعقابه إذا تركت بعض ماأمرك به ، ليبعثك ذلك على التدارك ، أو اذكره إذا اعتراك النسيان ، ليذكرك المنسى ، وقد حمل على أداء الصلاة المنسية عند ذكرها .

من مطعم وملبس وآلات تصوير . وما إلى ماهو مألوف لدى الرحالة المترفين ، فيبر ذو الحيثية ويفرج كرب المملق المحتاج ، ويعمل الصانع المتعطل ، ويترفق الأخلاء ، فإن كان الإنسان طبع الفعل بطابع العمل ، إلا أنه لم يتم إلا بمشيئة الله الذى أعان عليه ، فمن توهم أن بحيلته نفذت إرادته ، فقد دلل على غبائه ، وفساد عقيدته ، أما من هفا نسيانا ، وذكر على الفور خالقه ، فإنه يسلم بعقيدته من شطحات الظنون

مطالبة العباد بالتطلع دائماً إلى هداية الله المتجددة

وَقُل عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا (١)

فمهما طال بالإنسان العمر ، ومهما ضلع من العلوم والمعارف ، فهو دائماً فى حاجة إلى المزيد من هداية الله وإرشاده ؛ وعلى هذا فإنى أرجو أن لا يكون ما ذهبت إليه مخالفاً لما ذهب إليه علماء التفسير ، مما استنبطوه من قوانين اللغة ومراميها ، فليست معانى القرآن واقفة عند غاية ، فقد تطبق الآية الواحدة على جميع حالات الدنيا : دينية ، وتاريخية ، وأخلاقية ، وسياسية ، واقتصادية ، وتنسحب إلى الآخرة ، فتشمل حالاتها من : سعادة وشقاء .

فكما أنها تتسع للمعانى التى ذهب إليها جلة العلماء فى تفاسيرهم ، فقد تسع المعانى التى يذهب إليها الكتاب فى المجلات والصحف ، وفوق منابر الخطباء ،

(١) « وقل عسى أن يهدين ربى » أى يوفقنى « لأقرب من هذا » أى لشىء أقرب وأظهر من نبأ أصحاب الكهف من الآيات والدلائل الدالة على نبوتى « رشداً » أى إرشاداً للناس ، ودلالة على ذلك ، وقد فعل عز وجل ذلك حيث آتاه من البينات ماهو أعظم من ذلك وأبين ، كقصص الأنبياء المتباعدة أيامهم ، والحوادث النازلة فى الأعصار المستقبلة ، إلى قيام الساعة ، أو لأقرب رشداً ، وأدنى خيراً من المنسى .

وفيما يستشهد به المؤلفون فى الفنون التى يطرقونها ، فإذا قيل : إن الآيات التى نحن بصددها تسع المعانى التى أشار إليها التفسير كانت كذلك ، وإذا قيل : إن منها استمدت الحكمة المأثورة : لاترجىء عمل اليوم للغد ، كانت كذلك .

فالقرآن يحق دستور الإنسانية ، وسابق الزمان فى تنظيم أحوال العالم منذ نشأة الدنيا ، وكم فيه من حكم سيتمخض عنها المستقبل ، تولد مع حاجة الخلف إليها .

بيان المدة التى مكثها أهل الكهف

وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا(١)

هذا ، وإن من مميزات الناس ، وعجيب تكوينهم الفطرى ، أنهم طبعوا على حب الاستطلاع ، ومقابلة ما يقع تحت حسهم ، وما تبصره أعينهم أو تسمعه آذانهم بالجدل والنقاش : تارة بالحدس والتخمين ، حسب تبلوره فى أمزجتهم وعواطفهم التى ورثوها ، أو اكتسبوها من عقيدة أو ثقافة أو ما إليها ، وهؤلاء قد تذهب بهم الظنون مذاهب شتى تحمل فى الغالب طابع الباطل الذى لايدعمه دليل من حقيقة أو برهان ، كتلك الطوائف التى نأت فى أمر أصحاب الكهف ، إلى ما أملته عليهم الأهواء ، وتارة بما اقتنعوا به من النصوص التى أبانت عن حقيقة أمرهم بياناً لا لبس فيه ،

(١) «ولبثوا فى كهفهم» أجيباً ، مقروناً على آذانهم « ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا » : وهى جملة مستأنفة ، مبينة لما أجمل فيما سلف ، وأشير إلى عزة مثاله ، وقيل : إنه حكاية كلام أهل الكتاب ، فإنهم اختلفوا فى مدة لبثهم ، كما اختلفوا فى عددهم ، فقال بعضهم هكذا ، وبعضهم ثلاثمائة . ويروى عن على رضى الله عنه أنه قال : عند أهل الكتاب أنهم لبثوا ثلاثمائة سنة شمسية ، والله تعالى ذكر السنة القمرية ، والتفاوت بينهما فى كل مائة سنة ثلاث سنين ، فيكون تسعمائة ، وتسع سنين » .

خالياً عن مين الأساطير ، ومحرراً الوقائع التاريخية تحريراً رصيناً ، بعيداً عن الخيال البشرى ، والشطط العاطفى ، وهؤلاء بحكم تربيتهم التى اكتسبوها من هذه النصوص ، ينظرون إلى الأخبار الماضية والمستقبلة فى ظرفها الزمنى ، والمكانى ، كأحد ما يكون النظر ، وكأنهم يشاهدونها ويلمسونها فى حاضرهم ، لا استدراراً للخيال ، ولكن اقتناعا بالمقال ، لأنهم لم يلمسوا فيه عوجا ، ولا اختبروا عليه ضلال ، ونطقت جميع الملابسات بجلاله ، وصدق مااشتمل عليه من أخبار وأحكام ، أما الإرشاد ، فإن السمو والعزة والرفعة والإباء والكرامة والفضيلة ، وما إلى ما لا يحصى عداً من الصفات الإنسانية الممتازة ، فالشمس بأشعتها وضوئها الوهاج ، والقمر بنوره الوادع ، والكواكب بلألائها ، دون مايشع من سنا هذه الإرشادات ، وما يتضوع من هديها الرفيع ، لذلك كان حرصهم على الاقتناع بأخبار هذه النصوص ، لا يتدانى إليه حرصهم على مقلهم ، وفلذات أكبادهم ، كتلك الطائفة التى أصابت كبد الحقيقة فيما اختلج فيه أصحاب الكهف من تقلبات ، وإن أصدق وصف لشعور الطائفة الخيالية : « الوهم العاطفى » كما أن أصدق وصف للطائفة المثبتة « الاقتناع اليقينى »

إلفات الناس إلى أن لله وحده غيب السموات والأرض

قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

فقد ينخر وصب الإلحاد بالأغبياء ، فلا يتجاوز تصورهم الأفق المادى ، فى استكناه الغيب ، وذلك يجرهم قطعاً إلى إنكار ماوراء الماديات من مدارج الغيب العام ، ويتشبثون بأوهامهم تشبثاً ، يقضى على مثلهم العليا ،

ويسدل على بصائرهم غشاوة لا يتمكنون معها من تجنب المخاطر التى تولد مع انفلات بهيميتهم رعناء شامسة . وبذلك يهددون الأخلاق ، والنظم الاجتماعية . ويجنون على العقائد خصوصاً ، وعلى الفضائل عموما جنايات لاغاية لها إلا سواء السعير . لأن من ينكر غيب الله تعالى ، فإنه يتعذر عليه التحفظ فى الطاعة والخضوع ، والتحرز عن الموبقات . ومن ثم يخبط فى الجرائم خبط عشواء ، غير ناظر إلى مايترتب على عبثه من نذر العقاب . فيضرب فى الأرض بقدم مرح ، ويد عات ، ولسان سليط ، وعين فاجر ، وأذن شرير أحمق ، ولذا أراد الله جل وعلا ، أن يبين لعباده الأسباب التى يزور منها قرن الآثام كى يأمنوا الارتطام بها ، ووضع قواعد التعبد فى الفضائل والآداب فى الأخلاق ، والكمال فى الإيمان ، والاتزان فى التقوى ، والعزة فى التوحيد ، وجنى علمه المطلق فى حالات البشر خاصة ، وفى مظاهر السموات والأرض عامة ، ومن من العقلاء يطلع على هذه الحقيقة ولا يراقب الله فى السر والعلانية ، وينأى عن الشرور ، حتى ولو تقطعت به عن العمران الفيافى والوديان (١) !!..

من صفات الوحدانية

أبصر به وأسمع

فلو خلا بنفسه هذا المنذر الذى اجترم فى حق مولاه جريمة تخر منها

(١) إنى حينما كنت أكتب هذا البحث أتأمل فى هؤلاء الملاحدة الذين هم بين ظهرانينا ، وما يصرحون به فى محادثاتهم وكتاباتهم مما لايتفق ومقام الألوهية المقدس . وأتأمل بنوع خاص تلك المباذل الشريرة التى تحدق بهم نياما وأيقاظاً ، وأى ضلال يحطأهم إليه الالحاد ، أحط واشنع من انهم لايكلفون انفسهم التدبر فى الأسرار الكونية ، حتى ولا التشرف بلمس كتب السماء .

الجبال هدا ، ونسب إليه تعالى صفات الحوادث ، وأطال التفكير فيما نطق به القرآن العظيم ، شاهداً على وحدانيته ، وجلاله ، لما أثلج أوار ندمه أن يعصر أماقيه عبرات منهمرة ، ومشاعره لهباً ثائرة ، وقلبه ثاراً متقدة ، ونفسه حسرات مشتعلة .

أجل إن من شرائط المعبود واجب الوجود ، أن يكون له غيب السموات والأرض ، وأن يكون متصفاً بالبصر والسمع ، فالإلهية الحقة تتوافر لها جميع خصائص القدرة الغالبة ، والقوة القاهرة ، والعلم الشامل ، وهذا ما وضحه القرآن توضيحاً لا مجال بعده لشك أو ريبة . ولعمرى ، لو أن حرفاً واحداً نقص منه عما هو عليه ، لترك مكان هذا الحرف فراغاً ، ينفذ منه التردد والحيرة . ولكنه الهدى الربانى انطبقت عليه دفتيه ، ولقد لمس العقلاء من كتاب الله هذه الحقيقة ، فأقروا بوحدانية منزله جل شأنه ، مؤمنين خاشعين يعملون الصالحات ، فاستحقوا البشرى بالرضوان القدسى ، والنعيم الأبدى ، وكانوا من الفائزين .

إلفات الناس إلى أن لا مفر لهم من خالقهم

مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا

فأينما شطحت الخبائث بالإنسان ، ودار حول شهواته ، فلا مناص له من الإياب إلى المولى عز وجل ، إما مكرماً ، طاهر الذيل ، ميمون النقيبة ، مرفوع الرأس ، مطمئن القلب ، رضى النفس ، يشع نوراً وفرحاً ، وإما مجرماً شريراً خاثر النفس فزعاً ، ترهقه ذلة ، وتغشاه ظلمة ، نادما تتضمه

الحسرة قضما . وهذا هو الحق الصراح . سواء أقر المنكرون الحمق ، أم لم يقروا « فلا ملجأ من الله إلا إليه » .

آيات ترتبط بما تقدم — الأسباب الموجبة للبشارة

الأمر بالمداومة على دراسة القرآن وتدبره

وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ

وإذ علمت ذلك فاعلم أن دراسة القرآن الكريم وتدبره يستخرج سخيمة النفوس ، ويبرىء دخل القلوب ، ويصوغ الإنسان فى قالب من السمو والكمال ، فيعيش مثالياً ، ينظر إلى الأشياء كما هى ، دون إفراط أو تفريط ويعب من المعلومات اللدنية والكونية ، وتتدانى إليه آفاق السموات والأرض ، لأنه لولا القرآن الجليل ما علم شىء مما كشف عنه النقاب ، واطلع عليه العباد ، لئلا يؤخذوا على غرة ، ويقضوا صبراً ، فى مكبلات الجهالة العمياء .

تقرير أن المصير إليه تعالى لا محالة

وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا

فقد تتضافر على الإنسان مظاهر الحياة ، وتشتعل فى نفسه مفاتنها ، فاذا لم يحزم أمره ، ويقابل هذا الخطر الداهم بكياسة ، وتدبر محكم ، ويتخذ من هدى السماء وقاية له من الرسوب فى أعماقها السحيقة ، فإنه لا يلبث أن تغشى

قلبه حجب كثيفة تمنعه عن استشراف حقائق الغيب ، وتقسره على إنكار ما وراء هذه الحياة من عالم الآخرة ، حتى إذا أتم المدة المقدرة لبقائه الدنيوى ، ويستسلم للحمام ، فإنه فى هذه الحالة يدخل فى الطور الأخروى الذى صورته كتب السماء ، ويظهر له ما كان خافياً عليه من أوصافها ؛ ومن ثم يود لو نهج سبيل المؤمنين الذين كانوا لا يستريبون فى أنه لا ملتحد من دون الله ، فاتقوا نوازع الهوى ، وغواشى الضلال ، ولجأوا إلى الله وحده عند نوازل الحادثات ، وملمات البلايا .

منزلة الموحدين عند الله

وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ(١)

وإن من يقدر المقومات الإنسانية التى تحفظ كيانها ، وتصد عنها تيارات العبث والانحطاط ، فإنه لا ينفك عن سياجها ، ولو تحمل فى سبيل ذلك كل عناء وكبد ، ويستمر صاعداً فى مدارج الروحانية : يؤمر فيصدع ، ويدعى فيلبى ، لا يترخص فى غير رخصة ، ولا يتهاون فى قليل ولا كثير مما تفرضه قوانين الطاعة والأخلاق ، ولا يأخذ من الدنيا إلا بالقدر الذى يحفظ

(١) « واصبر نفسك » : احبسها وثبتها مصاحبة « مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى » أى دائبين على الدعاء ، فى جميع الأوقات ، وقيل : فى طرفى النهار ، وقرىء : بالغدوة . على أن إدخال اللام عليها وهى تحكم فى الأغلب على تأويل التنكير ، والمراد بهم فقراء المؤمنين ، مثل : صهيب ، وعمار ، وخباب ، ونحوهم رضى الله عنهم : وقيل أصحاب الصفة ، وكانوا سبعمائة رجل . قيل : إنه قال قوم من رؤساء الكفرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم : نح هؤلاء الموالى الذين كأن ريحهم ريح الضأن حتى نجالسك ، كما قال قوم نوح عليه السلام : « أنؤمن لك ، واتبعك الأرذلون » فنزلت « يريدون » بدعائهم ذلك « وجهه » أى مريدين لرضاه تعالى وطاعته .

الحياة . ولايجد السعادة الحقة إلا فى تعاليم الله جل وعلا ، ويحرص كل الحرص على أن يطبق أوامر القرآن عملياً . وهو كلما أمعن فى دراسته وتدبره ، ازداد صعوداً ورفعة .

يقول القرآن للإنسانية : « لا » إياك أن تقدمى تنهارى ، ويقول لها : « نعم » إياك : أقدمى . لا تراعى ؛ مهيعان : حضيض ، وسماء :

يقول : « لا » أى لازنا . لاخمر . لاميسر . لاقتل . لاظلم . لاجبروت ، لاغش . لاخداع . لازور . لاكذب . لانميمة . لاتبذل . لارياء ، لاتملق . لاباطل . لا آثام ؛ أى لاحضيض ؛ أى لاجهنم .

ويقول : « نعم » أى : عفاف . وقار ، كرامة ، عدل ، تواضع ، نزاهة ، اعتدال . قصد . صدق ، نبل . إباء . شهامة ، ترفع ، نباهة ، فضيلة ، أى سماء ، أى جنة .

فسار المؤمن لايثوى على شىء متجهاً نحو خالقه ، غير متعاس ولا وان تسعده البشرى كلما رن جرسها فى أذنه .

تقرير أن المؤمنين هم المثل الأعلى

وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ(١)

فمما هو موضع الاتفاق أن الإنسان ، كلما صلح أمره ، واستقام حاله ، وحسنت سيرته ، وخشى الله فى سره وعلنه ، فانه يكون موضع الحب والاحترام ممن يخالطه ، ومحل الثقة ممن يعامله ، يتأكد هذا المعنى واضحاً من أمر السماء لسيد البشر عليه الصلاة والسلام أن يكون أقصى ما يطمح

(١) « ولا تعد عيناك عنهم » : أى لايجاوزهم نظرك إلى غيرهم ، من عدوته إلى الأمر أى صرفته عنه . وقرىء : ولا تعد عينيك ، ولا تعد عينك ، من الاعداد ، والتعدية ، والمراد نهيه عليه السلام عن الازدراء بهم ، لرثاثة زيهم ، طموحا إلى زى الأغنياء .

إليه بنظره ، وأولى من توليهم عنايته واهتمامه ، أولئك الذين فهموا دعوته الشريفة ، وانصاعوا لدستورها القويم . وإذا كان الخطاب موجهاً إلى إمام المرسلين ، وسيد المتقين ، ومنقذ البشرية من سعير الضلال ، فإنه من باب أولى توجيه عام لكل العالم فى عصوره المختلفة أن لا ينفك عن ملازمة البررة وتتبع خطواتهم .

من علامات التأثر بالدنيا وخدعها مصاحبة الأشرار

تُرِيدُ(١) زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فإن من يقلب صفحات ما سلف فإنه حتماً سيقف عند هذه الآية الكريمة : « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها » وما كان للنمرقة المنذرة الهالكة ، إلا أن تندس فى حمأة الشهوات حتى تصدمهم الحقيقة التى لا يستطيعون إنكارها ، تزعجهم دائماً ، كلما رفرفت أجنحة الفناء ، فإذا أنعمت النظر فى الآية الشريفة التى نحن بصددها(٢) ، فإنها تفتح أمامك آفاقاً من المعانى الجليلة ، وتدلك على أن اتباع الأشرار ومصاحبتهم حافز على الرغبة فى زينة الحياة الدنيا ، وملاذها ، لأنهم بسوء تصرفهم ، وقصور عقليتهم ، وفساد طويتهم ، رضوا أن ينفردوا بتمثيلها أحط تمثيل ويقف تصورهم عند حدودها ، ويتقلبوا فى أعطافها . وتناسوا

(١) « تريد زينة الحياة الدنيا » أى تطلب مجالسة الأشراف الأغنياء وأصحاب الدنيا .

(٢) لاريب فى أن من تستيقن نفسه هذه الآية الكريمة فانه يغض طرفه عما لا حق له فيه مما متع به غيره . فمتى يأن لهؤلاء الذين يترصدون النساء فى الطرقات والمحافل وما إليها، فيلهبوهن بأبصارهم ، وبذىء غزلهم . ومتى يأن كذلك لهؤلاء الذين ينتهبون الحقوق أنى كان نوعها أن يأخذوا أنفسهم بآداب القرآن العالية ، وتوافيه الرفيعة ، ليأمروا بالمجد والكرامة ، ويعيشوا حياتهم فى أفياء الرفه والطمأنينة .

فى تجرع كأسها حتى الثمالة ، وكفى هؤلاء حقارة ، سخط خالقهم عليهم ، ونهى رسوله الأمين عن معالجة أمرهم ، بعد تأدية الرسالة ، وتمييز الهدى من الضلال ، وذلك فيما أمره به ربه من ملازمة المؤمنين .

الحكم على الأشرار بالغفلة وانفراط الأمر

وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (١)

وهذا تأييد لما ذهبنا إليه فى الآية السابقة ، وأى سحيق تردى فيه من يعيش تحت سلطة قلب غافل ، ويستبدل بخصائص إنسانيته : شهوة جامحة ، وهوى مطاعا ، ونزغات شريرة ، فهل يرضى عاقل أن يقترب من هذه الجراثيم ، ويلوث نفسه بآثامها ؟ .

نفى ورود الحقيقة عن غير الله

وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ

فقد يخيل الوهم الكاذب للأغبياء أننى أغلو فى تصوير المبشرين

(١) «ولا تطع» : فى تنحية الفقراء عن مجالسك «من أغفلنا قلبه» أى جعلناه غافلا ، لبطلان استعداده للذكر بالمرة ، أو وجدناه غافلا ، كقولك : أجبنته وأبخلته ، إذا وجدته كذلك ، أو هو من اغفل إبله ، أى لم نسمه بالذكر «عن ذكرنا» كأولئك الذين يدعونك إلى طرد الفقراء عن مجلسك ، فانهم غافلون عن ذكرنا ، على خلاف ماعليه المؤمنون ، من الدعاء فى مجمع الأوقات . وفيه تنبيه على ان الباعث له على ذلك الدعاء غفلة قلبه عن جناب الله سبحانه . وجبته وانهماكه فى الحسيات ، خفى عليه ان الشرف بحلية النفس ، لا بزينة الجسد «واتبع هواه» ، وكان أمره فرطا ، ضياعا وهلاكا ، او متقدما للحق والصواب ، نابذاً له وراء ظهره ؛ من قولهم : فرس فرط : أى متقدم للخيل . أو هو بمعنى الافراط والتفريط . فان الغفلة عن ذكره سبحانه تؤدى إلى اتباع الهوى المؤدى إلى التجاوز والتباعد عن الحق والصواب .

والمنذرين . وأنى لهؤلاء أن يدركوا أن ما استمليته فى تصويرهم هو مصدر الحقائق والمعرفة .

أجل إنه الحق الذى لا ريب فيه . ففى كل آية أصدق دليل على ذلك ، وهذه هى القرون تتابعت بما زخرت به من حوادث وتقلبات ، كلها تنطق بما أخبر عنه كتاب الله الذى أدرك الإنسانية على ذماء ، تلهث من إعياء لطول ما عجت خلف الآثام . فأعاد إليها أمنها وطمأنينتها ، وهدأ من روعها وأنار لها طريق المدنية ، وحطم الأصفاد التى كانت تحجزها عن مبصرات السعادة والاستقرار ، وأوضح لها الخطة العملية للرشد والفلاح ، بما قصه من تواريخ ، وبما ضربه من أمثلة الذين اتبعوا الهدى والرشاد ، فاكتنفهم الله برحمته ورضوانه ، وأسبل عليهم ستر حمايته ، وأظلهم بظل رحمته ورضوانه ؛ وأمثلة من تعبد لهواه ، فأسلمه للهلاك فى الدنيا ، وسلكه فى قود المدحورين .

تهديد عنيف للسالكين غير سبيل المؤمنين

فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ (١)

إذ بعد بيان ما تقدم ، وظهور طريق الفلاح وطريق الشقاء ، لا عذر لمن يسعى إلى حتفه بتمدمه .

ففى هذه الآية الشريفة مقنع لذوى القلوب المتحجرة ، والنفوس المادية ،

(١) « فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر » : أى عقيب تحقق ان ما أوحى إلى حق « لاريب فيه ، وان ذلك الحق من جهة ربكم ، فمن شاء أن يؤمن به ، فليؤمن كسائر المؤمنين ، ولايتعلل بما لا يكاد يصلح للتعلل ، ومن شاء أن يكفر به ؛ فليفعل ، وفيه من التهديد ، وإظهار الاستغناء عن متابعتهم وعدم المبالاة بهم وبايمانهم وجوداً وعدماً مالايخفى والمعنى : قل لهم ذلك ، وبعد ذلك ، من شاء ان يؤمن به ، أو أو يصدقك فيه فليؤمن ، ومن شاء ان يكفر به أو يكذبك فيه ، فليفعل .

بان الحق من الله وحسب . وهل بعد الذى ذكر من ترغيب وترهيب وثناء وتهجين ، يتردد أحد به مسكة من عقل ، أو ذرة من شعور إنسانى ، فى الإيمان بالله الذى أنزل القرآن ؟ لقد علمت أن الإيمان يحوطك بالفضيلة والعز ، ويدرأ عنك الأهوال والأرزاء ، فماذا يضيرك لو آمنت ؟! وفى نفس الوقت تحققت من أن الكفر سوط عذاب يلهب ظهر الكافر إلى المخازى والجرائم ، فما الذى يفيدك إذن من التعلق بدسر من يحملك إلى الشقاء ، احكم أيها العاقل بنفسك على ما تختار « وكفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ».

تفريع على التهديد السالف

بيان العقاب الذى ينتظر المنذر الذى يكفر

إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ، وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِى الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (١)

فما أبشع العقاب ، وأسوأ المآب الذى ينتظر الفاسقين . فإن الدنيا

(١) « إنا أعتدنا للظالمين » : أى هيأنا للكافرين بالحق بعد ما جاء من الله سبحانه والتعبير عنهم بالظالمين ، للتنبيه على أن مشيئة الكفر واختياره ، تجاوز عن الحد ، ووضع للشىء فى غير موضعه . « ناراً » عظيمة عجيبة « أحاط بهم سرادقها » أى فسطاطها شبه به مايحيط بهم من النار ، وقيل : السرادق الحجرة التى تكون حول الفسطاط ، وقيل : سرادقها دخانها ، وقيل : حائط من نار « وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل » أى يستغيثوا من العطش والمهل : كالحديد المذاب ، وقيل : كدردى الزيت « يشوى الوجوه » إذا قدم ليشرب انشوى الوجه لحرارته . عن النبى عليه الصلاة والسلام : هو كعكر الزيت ، فاذا قرب إليه سقطت فروة وجهه . « بئس الشراب وساءت مرتفقا » : متكأ ، وأصل الارتفاق نصب المرفق تحت الخد ، وأنى ذلك فى النار ؟ وإنما هو بمثابة قوله تعالى : « حسنت مرتفقا » .

بخذافيرها لو اجتمعت فى حيازة امرىء ، وفتحت له كوة يطل منها على هذا السعير الفائر ، وخير بين أن يفتدى نفسه بما فى حوزته من قصور وضياع ، أو يعرض نفسه للهب هذا السعير ، لتماسكه الجزع ، وتبرأ من ملك الدنيا ، على أن ينجو مما شاهد من عذاب هائل ، يصهر الجلاميد ، ويذيب الحديد .

تفريع آخر

بيان النعيم الذى ينتظر المبشر الذى يؤمن

إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ، أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ ، وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ، مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَائِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا (١)

لقد نبذ الذى يكفر بخالقه فى هاته النار المستعرة ، وأقبل المؤمن يخطر وملء جوانحه بشراً وحبوراً ، نحو هذا النعيم الذى هو فوق ما أبصرته

(١) « جنات عدن » : أى جنات إقامة : « من أساور » : هو جمع أسورة ، أو إسوار جمع سوار . « ويلبسون ثيابا خضرا » : خصت الخضرة بثيابهم لأنها أحسن الألوان وأكثرها طراوة . « من سندس وإستبرق » أى مما رق من الديباج ، وماغلظ ، جمع بين النوعين ، للدلالة على أن فيها ماتشتهى الأنفس ، وتلذ الأعين . « متكئين فيها على الأرائك » : على السرر على ماهو شأن المتنعمين :

العيون ، أو سمعته الآذان ، أو اختلجت به القلوب البشرية ، نعيم يليق بحياة سرمدية خالدة . إذ أن المؤمن لما عرف حدود الله وتخلق بأحكام الدين الحنيف وقوانينه ، واتبع الطريقة المثلى فى إقباله وإدباره ، ومضى فى معاملاته وعباداته على سنن تعاليم السماء ، رق شعوره . وسمت عواطفه ، وهذبت طباعه ، واستقامت له موازين الفهم والإدراك ، فتصور الآخرة وكأنه يعيش بين ربوعها . فى جدرها الزبرجد والمرجان ، وطرقاتها اللؤلؤ واليواقيت ، فى ولدانها المخلدون ، فى ذرابيها المبثوثة ، ونمارقها الموضوعة فى عيونها الجارية وسلسبيلها العذب ، فى أكوابها الذهب ، وقواريرها الفضة ، جنات الخلد ، يرتع فى مطارحها المؤمنون ، أينحرفون بعدئذ ، أتزعزهم عنها الدنيا ، بقصورها الشاهقة التى لا تصمد لقنابل الفسفور والذر وضياعها التى لا تقوى على تقلبات الجو ، وعوامل الطبيعة ، من قحط وجدب ؟ . .

النقاء منذر ومبشر فى حوار

تتجلى فيه حكمة الإيمان ، ورجس الكفر

وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ، كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا ، وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ، وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ

هذا ، وإن كفران النعمة مرض نفسانى خبيث يعترى ذوى الطبائع الوضيعة

فيقابلون العوارف والأيادى بالنكر . ولا يقرون بها إلا حينما ترهقهم الضرورة ، فإذا أتيح لهم الاستغناء والقدرة . كانوا أجمح من الخيل المرسلة فى مقابلة الإحسان بالإساءة . ويرجع تعليل ذلك إلى أن النفس البشرية تصطدم بين عاملين(١) : أحدهما مادى ، والثانى روحانى . فإذا انفعل العامل الأول ساورت القلب قساوة كثيفة . تحجب عنه آفاق الفضائل ، وتفتح عليه أخطار الحياة . وتفعمه بحبها الذى يجر إلى الهلاك . أما العامل الروحانى فمعنى انفعاله . تربية الحواس والمشاعر تربية سامية تجعلها دائما تمج الدنايا والسفاسف ، وتطمح دائما إلى السماء .

وليزداد الناس بصراً بالأخلاق الكريمة . والإيمان الخالص . عرض القرآن الكريم لتحليل نفسية شخصين : متيم بالدنيا ، يرنو إلى خيالاتها المزوقة ملء آماله وأمانيه ، لا يريم ، ويلبى ملء سمعه وبصره هواجس آثامها لا يتأثر

---

(١) « واضرب لهم مثلا » أى للكافرين والمؤمنين ، لا من حيث أحوالهما المستفادة مما ذكر آنفاً من أن الأولين فى الآخرة كذا ، والآخرين كذا ، بل من حيث عصيان الأولين ، مع تقلبهم فى نعم الله تعالى ، وطاعة الآخرين ، مع مكابدتهم مشاق الفقر (مثلا) حال رجلين مقدرين ، أو محققين ، أخوان من بنى اسرائيل ، أو شريكان : كافر ، اسمه قطروس ، ومؤمن اسمه : يهوذا ، اقتسما ثمانية آلاف دينار ، فاشترى الكافر بنصيبه ضياعاً وعقاراً ، وصرف المؤمن نصيبه إلى وجوه البار ، فآل أمرهما إلى ماحكاه الله تعالى ؛ وقيل : هما أخوان من بنى مخزوم : كافر ، هو الأسود بن عبد الأسد ، ومسلم ، هو أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد ، زوج أم سلمة رضى الله عنها .

« جنتين » بستانين « من اعناب » من كروم متنوعة « وحففناهما بنخل » أى جعلنا النخل محيطة بهما ، مؤزراً بها كرومها ، يقال : حفه القوم إذا أطافوا به ، وحففته بهم جعلتهم حافين حوله « وجعلنا بينهما » وسطهما « ولم تظلم منه » لم تنقص من أكلها « شيئاً » كما يعهد ذلك فى سائر البساتين ، فان الثمار غالبا تنكثر فى عام ، وتقل فى آخر ، وكذا بعض الأشجار ، يأتى بالثمر فى بعض الأعوام دون بعض « وفجرنا خلالهما نهراً » على حدة ، ليدوم شربهما ، ويزيد بهاؤهما (وكان له ثمر) أنواع من المال غير الجنتين ، من ثمر ماله إذا اكثر . قال ابن عباس رضى الله عنهما : هو جميع المال من الذهب والفضة والحيوان وغير ذلك ، وقال مجاهد . هو الذهب والفضة خاصة .

بمواعظ الواعظين . ولا يعتبر بالمآسى التى حطمت من سار قبله سيرته ، ولا يذكره الإنذار السماوى . وكيس رشيد عرف الله . فآمن . وعاش فى الدنيا على ذكر من الآخرة . فسما . وظلته البشرى . فاطمأن .

فلا عجب إذن أن يؤذى كرامة هذا المؤمن . ويجرح شعوره . ما يبدو على المنذر الكافر من حقارة ودناءة . وتأليه للدنيا .

طغيان المادة على النفس . وتأثيرها فى العقيدة

فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ؛ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (١)

فهاك ترى أن حلس الدنيا ، لا يعتز بشىء اعتزازه بعرضها الزائل ، فلا يبصر إلا سهامها الرائشة ، مشرعة أسنتها إليه . فيزيه فخراً بثرائها . حتى إذا ذكر بما وراء هذه الحياة عرضاً . نفخ الغرور أوداجه ، وأعطى نفسه صك الرفاهة أبد الآبيد . فركن إلى الدنيا . وآمن حيث المادة . فإذا املست من بين يديه . لفحه أوار الندم على ما فرط فى جنب الله . ولكن متى . . حينما طوى الركب المراحل . وتخلف هو يرتدع فى قاذورات الهوى ،

(١) (أنا اكثر منك مالا واعز نفرا) حشما واعوانا . او اولادا ذكورا . لانهم الذين ينفرون معه (وهو ظالم لنفسه) صار لها بعجبه وكفره (تبيد) تفنى . هذا . ولعل فى قوله (ولئن رددت إلى ربى) الخ . تهكم بالمؤمن الذى يعظه .

يسامر الشياطين ، فى ظلمات تتصارع فى دياجيرها الأشباح . ولقد استفاض الحديث آنفاً فيما يترتب على إيثار الدنيا وزينتها ، فارجع إليه إن شئت أن تستحضر صورة هذا الجاحد « المنذر » الذى غمره مولاه بالنعم ، وأفاض عليه اليسر والرغد ، فأبى عليه لؤم طبعه إلا أن يتخطى سياج الشكر ، ممثلا فى الإيمان والتوحيد ، وينخرط فى غمار المادة ، خالعاً عليها دوام الخلود ممثلا فى الكفر والجحود الذى يمحق البركة ، ويسلب النعم بداهة ، إما بعقاب إلهى لا مانع له ، وإما بما تجنيه يداه ، من إسراف وتبذير فى مظاهر الحياة ، وما تدفع إليه من حرية وبهيمية ، يسيل لعابها إلى المحرمات : من خمر وزنا وقمار ولهو ، وما إلى ذلك ، مما لا يخفى على أحد ، وهذا من أخبث ألوان الظلم النفسانى الذى يضطرنا المقام إلى سرد لمح منه .

« وهو ظالم لنفسه » فقد تعارف الناس على أن الظلم هو مايناله الضعيف من القوى ، من افتيات وإجحاف ، أو المرءوس من الرئيس ، أو المخدوع من الخاتل ، أو المسالم من الكاشح ، إلى آخر أنواع الظلم السافرة والمقنعة ، ولم يعرفوا هذا النوع الغريب الذى يجنيه المرء على نفسه ، ويوقرها بعبئه الثقيل الذى ينوء بالكاهل ، ويكون هم النهار ، وسهد الليل .

ولكن الحقيقة ، فان الإنسان أكثر ظلماً لنفسه من الظالمين وأخطرهم عليها من الطغاة والمستبدين : ينتهك الإنسان حرمة أخيه ، أو يغتصب حقاً من حقوقه أو يغازل محارمه ، أو يصفعه أو يسبه أو يجابهه بعبارة نابية ، أو كلمة بذيئة أو يوقع به أو يغتابه أو يفوت عليه منفعة أو يلحق به ضرراً فإلى جانب أنه يظلمه بذلك ، فقد يكون لنفسه أشد ظلماً ؛ لأن الضرر الذى يسببه الإنسان لغيره لا يؤازى مايحقبه من سخط الله وعذابه الأليم فى الدنيا بالأمراض القاتلة ، وفى الآخرة بالجحيم الهائل .

وفى كثير من الأحايين لايتعلق ظلم الإنسان لنفسه بحق من حقوق الناس ، وإنما هو تارة يتعلق بحق من حقوق مولاه الأعلى ؛ فإن أثرى ولم يشكره ، أو بؤس ولم يحمده ، أوشبع أو كسى ، أو تحقق له أمل فى الحياة ولم يوف هذه الآلاء حقها من الطاعة والثناء ، أو تهاون فى أداء فرض من فرائض الله : كصلاة وصيام ، وحج ، وهو قادر عليها ، أو قطع صلات رحمه ، أو ضن بكسرة لذى مسغبة ، أو آذى بائساً بانتهار ، أوحقر معوزاً أو تأفف من أبويه ، أو حدث كذباً ، أو شهد زوراً ، أو غش ، أو دلس أو طفف الكيل ؛ وبالجملة إذا خرج على أية ناحية من قوانين الدين ، والأخلاق والاجتماع ، فإن الظلم الذى يعود على نفسه لا نهاية له ، وأى ظلم يصيب الإنسان أكثر ممن يتهاون فى حق من حقوق خالقه العظيم ، الذى خلقه فسواه ، ومنحه بصيرة وعقلا .

وتارة يتعلق ظلم النفس بحق من حقوقها « وإن لبدنك عليك حقاً » فإن أدواها بجرائم : الزنا أو الخمر أو لحم الخنزير ، وما إليها ، أو ضيع ثروته فى الميسر أو أدمن على مكيفيات ، وهو يعلم أنها تضره مادياً وصحياً ، كأولئك الذين يحقنون أنفسهم بمواد مخدرة سامة «كالموروفين والألفيون » أو يتعاطون ـ تبغاً ـ سجاير ؛ فيتأثر كبدهم بإفرازها ، فيفقدون أموالهم ، وتضمحل صحتهم . فهل يبلغ الظالم لغيره بالظلم ما يبلغه هذا من نفسه به ؟ ..

وتارة يتعلق ظلم النفس بحقوق يشاركه فيها المجتمع ، كمن يترك مثلا لنسائه العنان ؛ فانه يظلم نفسه بانحلال مركزه الأدبى ، وكل جريمة خلقية ، تنتشر فى الأرض ، وفتنة غوية تطوى الأوساط والبيئات . فهو عديلهم فى جريرتها وآثامها ، وكل راع مسئول عن رعيته .

تعجب المؤمن من اغترار الكافر وجرأته على مولاه

قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا(١)

يعيش المؤمن والكافر تقلهم أرض واحدة ، وتظلهم سماء واحدة ، ويتقابلان فى الطرقات والأسواق ، وهنا وهناك ، ولكن هذا يسبح بأفكاره فى واد ، وهذا فى واد آخر ، فإذا قيس بينهما بدا الفارق الشاسع بين من يعيش بعقل يزن الأمور ، ويبصر الحقائق ، وبين من يركب متن الأوهام ، ويطبق أجفانه عن رؤية الأشياء بكنهها وحقيقتها ، حتى لا يؤذيه ذلك ، ويقسره على مجانبة ما ظهر له باطله ؛ وإن المؤمن لا يهوله شىء أكثر من أن يصادف إنساناً يجترىء على الله سبحانه وتعالى ، ولا يلتاع من نازلة التياعه أن يعثر بمن ينكر فروض الخشوع لجبار السموات والأرض فلم يلبث أن ينبرى ، يصد هذا المتهور عن الهاوية التى أشفى عليها أو كاد ، مهما عظمت سلطته ، ورعدت سطوته ، وسال ثراؤه يطاول الأبعاد والمسافات ، ومهما كان هو لا يملك من حطام دنياه إلا أسمالا ممزقة ، وأطماراً عزت على الترقيع ، ولا ينفك يقيم له الأدلة من أصل خلقته القابلة

(١) « من تراب » فان خلق آدم عليه السلام منه متضمن لخلقه منه ، اما ان خلق كل فرد من افراد البشر له حظ من خلقه عليه السلام ، إذ لم تكن فطرته الشريفة مقصورة على نفسه ، بل كانت انموذجاً منطويا على فطرة سائر افراد الجنس انطواءاً إجمالياً ، مستتبعاً لجريان آثارها على الكل ، فكان خلقه عليه السلام من التراب ، خلقاً للكل منه ، وقيل : خلقتك منه ، لأنه اصل مادتك القريبة ، إذ به يحصل الغذاء الذى منه تحصل النطفة . فتدبر « ثم من نطفة » هى مادتك القريبة ، فالمخلوق واحد ، والمبدا متعدد .

للفناء (١) . على فساد مايذهب إليه من أكاذيب . وتفكير أخرق . والتمسك بالفانى الذى اجتمعت منه عناصره .

محافظة المؤمن دائما على ذكر مولاه

لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا

فالمؤمن يرى فى ربه المثل الأعلى ، فلو ساومه أحد بملك الدنيا من أقصاها لأقصاها . على أن يحول طرفه عن خالقه فترة عابرة . فانه يستخف بمساومه ، ويقصيه عنه . لأن تجارب الماضى والحاضر دلته على أن الدنيا لابقاء لها ولاثبات . فهؤلاء الملوك والأباطرة والأقيال بحافلهم وسلطاتهم وهؤلاء القادة والزعماء بأتباعهم وبطانتهم . وهؤلاء ملوك المال ذوى الثراء العريض : من قصور عالية ، وحدائق مكللة ، وضياع مترامية . وذهب نضار ، وهؤلاء البؤساء والمحتاجين ، يكتسحهم الموت اكتساحاً . ويطويهم الفناء طياً . فهل تمنع أحد عليه ، ممن لهم الصولة والدولة . والحول والطول ، وهل تخطى أحد عصراً غابراً إلى عصر يليه ، ممن كانت الآمال تشتعل فى قلوبهم حباً فى البقاء . وحرصاً على متع الأهواء ؟

فهم المؤمن هذه الحقيقة فسخر بالدنيا أحبولة الكفر ، ومفتاح الخبائث ، واتجه نحو الله ينعم بسعادة قربه ، لايحجبه عن ذلك ليل أو نهار ، ولا ثراء ولا فقر ، لأن العوائق المادية لا يمكن بحال من الأحوال أن تحول بين تجليات القدس .

(١) فى هذه الآية الكريمة تهجين للكافر وتحقير لشأنه ، حيث ينسب خالقه إلى صفات الحوادث . مع علمه بمهانة العناصر التى يتجمع منها خلقه ، مما لايليق بجناب الالهية المقدسة .

وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ، فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ(١)

ومن ثم ليس من الغلو فى شىء أن نقرر أن المؤمن كالزنبقة الأرجة ، ينفح أينما كان طيباً وعطراً ، فهو فى ذات نفسه وديع ، نقى القلب ، طاهر الضمير ، يقبل ويدبر على ضوء من لدن خالقه ، ولايشغل ذاكرته شاغل عن مولاه ، ولو اصطلحت عليه لأواء الحياة وبأساؤها ، وجثمت عليه الفاقة بكلكلها ، كما سبقت الإشارة . وإلى جانب ذلك ، فإن قدرة الله تعالى تتمثل له فى الشجر والمدر ، فى المدن والقرى ، فى الجبال والأنهار فى مطارح الأرض : صحارى ووديان ، وهاد وقنن ، خصب ومحل ، حدائق ومزارع . وفى آفاق السماء : نجوم وكواكب ، شموس وأقمار . وهذه المعرفة بالطبع جردته عن دنىء الخلال ، فإذا وقعت عينه على نعمة أحاطت بأحد من عباد الله ، كان أول ما ينصرف إليه همه الاطمئنان إلى قدرة الله والإقرار بأنه وحده الوهاب القدير الذى كل يوم هو فى شأن : يرفع أقواماً ويخفض

(١) « لا قوة إلا بالله » أى هلا قلت ذلك ، اعترافا بعجزك ، وبأن ما تيسر لك من عمارتها وتدبير أمرها ، إنما هو بمعونته تعالى وإقداره ؛ عن النبى صلى الله عليه وسلم : « من رأى شيئا فأعجبه ، فقال : ماشاء الله ، لا قوة إلا بالله لم يضره » .

آخرين ، إن أراد تمليك بائس ، فلا تستطيع قوة على وجه الأرض أن تمنع عنه ما خص به . كما أن أحداً لا يقدر أن يلوى متربة عن ثرى ، تتكدس الأموال فى خزائنه . فالمؤمن بحكم التعاليم العالية التى اكتسبها من عقيدته ، فإنه لايحجم عن نصح المعاندين ، وتبصيرهم بما يجره الغرور والكفر بالله من مصائب ونكبات ، ويستمد أدلته من المحسوسات التى يستطيع المنذرون أن يفهموا لغتها . فيشير إلى أن الذى أعطى هذا ، وحرم ذاك ، لا يعجزه أن يسلب نعمة هؤلاء ، ويحولها إلى سواهم .

اعتقاد المؤمن بأن عوامل الطبيعة سماوية وأرضية إنما هى من مظاهر القدرة الإلهية

وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ، أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (١)

وإننا لو استطردنا فى سرد الوقائع المادية على قدرة الله تعالى الذى بيده ملكوت السموات والأرض ، لغص بتتابعها وتهافتها آلاف الصحف . فقد حدث ويحدث أن حصد المئون علماء تدانت لهم عناصر الطبيعة وسخروها بإرادة الله لخدمة العالم من أثير وكهرباء وراديوم ، وما لا حصر له من المكتشفات الحديثة ، بيد أن ذلك لم يغير شيئاً من النظام الكونى الذى قدره الله ، من إفناء هـــذه الحياة ، فمتى حان أجل أحد من هؤلاء

---

(١) «حسبانا» قيل : مرامى ، جمع حسبانة ، وهى الصواعق وقيل غير ذلك « صعيداً زلقا » أى أرضاً ملساء ، يزلق عليها ، لاستئصال ما عليها من البنـاء والشجر والنبات « غوراً » أى غائرا فى الأرض .

المكتشفون . فلا منقذ له من المصير المحتوم . الذى قدره الله على جميع الكائنات الحية ، دون استثناء بين قوى ذى مرة ، وضعيف لا يقوى على حركة ، عواهل وسوقة الخ . وإن أخبث الزنادقة والملاحدة لايمكنهم أن يجحدوا هذه الحقيقة ، فبرغم إنكارهم للحقائق المعنوية ، ولما دعوا إلى الإيمان به من هيمنة الله على تصريف الأمور ، وتقليب الأحوال . فإن شيئاً يقرون بحقيقته إقراراً حسياً واعتقادياً . وذلك الشيء هو الموت ، ولاحيلة لهم فى إنكاره ، ولو أنهم نحوا عن عقولهم حجب الجهل ، وكثافة الدوافع البهيمية ، لتوصلوا بقليل من الروية والتأمل إلى إبصار قدرة الله تسيطر على الكون ، وتصرف شئونه ، وتدبر أموره ، وتبرم وتنقض ، وتتحكم فى عوامل السماء والأرض تحكما مطلقاً عاماً ، لا يعترضه عقبة ، ولا تمنعه سدود ، ولا مسافات ، ولا أغوار .

أجل : يبصرون ذلك أنبغ ما يكون فيما سجله القرآن الكريم ، وإذا كان كفرهم الضرير الألكد ، قد مكن من عقولهم وبصائرهم غواشى الفسق والشك ، ولم تتح لهم فرصة التأمل فى آثار قدرة الله تعالى ، فذلك لايغير شيئاً من الواقع الملموس ، بأنه الفعال لما يريد ، وأن كل ما تتمخض به العقول البشرية ، والأيد العاملة ، فما هو إلا برهاناً يقوم على قدرته ، لأنه بإرادته ما كان ويكون إلى يوم الدين .

وهذا ما حاول المؤمن أن يلفت إليه الكافر المغرور ، كى يقلع عن غيه ، وينظر إلى الناحية المادية نظرة بعيدة عن الركون إليها كقوة تنفع أو تضر ، وبذلك يتجنب العوامل التى تدفع إلى الشقاء دفعاً .

حسرة الكافر وندمه عند ما تطبق عليه نذر الله

وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا(١)

وبعد أن يتبين للمنذر أن إيثار الكفر على الإيمان والاغترار بزينة الحياة الدنيا ، والإحجام عن شكر الله على آلائه ، جالب للرزايا والمحن ، ومع ذلك فهو يلح فى عمايته ، حتى إذا أمضى الإله جل شأنه وعيده وأخذه بكفره وغطرسته واغتراره ، وسلب منه ما أعطاه ، وأطلعه عملياً على أن بيده وحده تعالى تقليب الأمور ، وتغيير الأحوال ، لم يتمالك أن يثوب إلى رشده ، وتنكشف له الحقائق الربانية التى انقدحت فى نفس المؤمنين . ويدرك آنئذ أنه خسر الصفقتين ، وضل الطريقين ، فلا المال الذى أطغاه دام ، ولا حكم عقله فيما حكم فيه المؤمنون ، فحظى مثلهم بالسعادة الدائمة .

تقرير أنه لا راد لقضاء الله

وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا

فإذا وقع قضاء الله تعالى وحان وقت تنفيذ وعيده فى عبد ، فإن الكمى الجلد ، تتخاذل أعضاؤه ، ويفقد الولى الحميم صوابه ، وتطيش أحلام المظاهرين والمواسين ، وتتقلص فى نفسه تلك الأحاسيس التى كانت تفرخ فى روعه الأوهام : أن سفينة الأقدار شقت به عباب الحياة بريح رخاء ، وأن

(١) ﴿ وأحيط بثمره ﴾ أهلك أمواله المعهودة من جنته ، وما فيهما وتقليب اليدين ، كناية عن الندم .

بيده البطش والصفح ، وأن ملكه ماله من نفاد ، فإذا وضح له خطأ زعمه ، وأن الثروة عارية مستردة ، تلفت حواليه يمنة ويسرة ، فلا يقع طرفه على الجموع الحاشدة التى كانت تتملقه ، وتترامى لإشارته . ويستصرخ العالم أن ينقذه ، فلا يعثر على من يدفع عنه قضاء الله تعالى .

تقرير أن الإنابة إلى الله تعالى أحق وأولى

هُنَالِكَ ٱلْوَلَايَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ، هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً ، وَخَيْرٌ عُقْباً

فبعد الذى تقدم من آيات لم تدع مجالا لريبة فى أن الإنسان يجب عليه أن يسير فى حياته سيرة مرضية ، وأن لايغره ما مكن الله له من رخاء الحياة وصفوها ، وأن يتخذ ذلك ذريعة إلى صالح الأعمال ، وجميل الذكر وحسن الأحدوثة ، وإنه لمن خطل الرأى ولؤم الطبع تخطى هذا السياج الحكم .

تعقيب على ما تقدم

مثل الحياة الدنيا فى تعرضها للزوال

وَٱضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ ، فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ ٱلرِّيَاحُ(١)

لقد علمت ماعلمت من أخبار المبشرين والمنذرين ، واعتقاد كلا الفريقين

---

(١) « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا » أى واذكر لهم ما يشبهها ، فى زهرتها ونضارتها ، وسرعة زوالها ، لئلا يطمئنوا بها ، ولا يكفوا عليها ، ولا يضربوا عن الآخرة صفحاً بالمرة ، أو بين لهم صفتها العجيبة التى هى فى الغرابة كالمثل . «هشيما» مهشوما مكسوراً « تذروه الرياح » تفرقه .

وحالها الاجتماعى والأخلاق ، ومآلها ، ولفتناك أكثر من مرة إلى ما يجب أن يسلكه العقلاء ، حتى يحتفظوا باعتبارهم فى الأسرة الإنسانية الراقية المهذبة ، ولما كان العقلاء بداهة يأنفون عما لا يليق بمراكزهم التى خولت لهم الحق فى التزام حدود الكياسة والاتزان ، والتحكم فى إرادتهم وأعصابهم والترفع عن الانخداع العاجل بمظاهر جوفاء لا تصمد للتمحيص .

ولما كانت الدنيا هى العقبة الكؤود فى طريق الوصول إلى المجد والرفعة ، بل هى المشكلة المعقدة التى أوقعت فى حبائلها الأغلبية الساحقة ، وأنشبت فيهم مخالبها ، فاستسلموا لها تعصر من قلوبهم نقاء اليقين ، وتنسج حول عقولهم وأفكارهم صدأ الجهل والغباء ـ أراد جل شأنه أن يطلعهم على سرعة زوالها وأنها معرضة للفناء المفاجىء ، كما تتعرض النباتات للجوائح السماوية لايدرى أحد أيان تقع ، ولا شىء أسرع فساداً من النبات ، يختلط من وابل السيل المنهمر بقدر لايحتمله وينوء به كيانه ، فلم يلبث أن تتقوض نضرته ، وتذبل خضرته ، ويصير هشيما تتخطفه الرياح .

فأى عاقل هذا الذى يسلسل قياده لما لايدرى أحد متى يصبح كومة مهملة من الهشيم لا نفع لها ، منبوذة فى مهب الرياح ؟! ..

قدرة الله المطلقة

وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا

إذن لا مراء والحالة هذه فى أن قدرة الله تعالى تظهر آثارها فى كل شىء كأوضح ماتكون القدرة الغالبة ، فهذه الأرض بدورتها المنظمة وارتباط بقائها بالسماء ، لتتوثق صلة العالم المادى بالعالم المعنوى ، ولقد فصل العلم

الجغرافى هذا المعنى تفصيلا كاملا . فالشمس تمد الأرض بالحرارة التى تحفظ كيانها . وهى تدور حولها ، وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شىء ، وبهذه الدورة عرف الحساب الشمسى(١) . وكذا لولا القمر لما عرف التوقيت القمرى ولحرم العالم كثيراً من المنافع التى لها ارتباط بكثير من شئونه ، وأيضاً ففى القطر الخصب والنماء الخ . فقدرة الله تعالى ، كما أنها تهيمن على مقدرات السموات فهى تهيمن كذلك على المقدرات الأرضية من أشجار وأنهار وجبال ، وسهل وحزون ، وعامر وغامر ، والأدلة على ذلك متوافرة . ولقد ألممنا بطرف منها قريبا ، وإن الذى خلق الأرض وهى دخان ، لايعجزه إفناءها عند ما يريد ذلك ، وإن الذى خلق بالماء الخصب ، لايعيا أن يعكس الغرض منه ، ويحيله إلى عامل نقمة ، لا عامل نعمة .

أقصى ماتصل إليه زينة الحياة الدنيا لا قيمة له بالنسبة لما عند الله

ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا ، وَٱلْبَاقِيَاتُ ٱلصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا ، وَخَيْرٌ أَمَلًا(٢)

لا إخالك ، وقد تلوت الآيات الكريمة التى أعقبت آية « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها » وتدبرت المعانى التى لاحصر لها ، المنطوية عليها ، وكيف حللت نفسية الذين سقطوا تحت سنابك مغرياتها ، والذين تمنعوا

---

(١) لا يتعارض ذلك مع ما ذهب إليه بعض المفسرين .

(٢) « والباقيات الصالحات » هى أعمال الخير ، وقيل : هى الصلوات الخمس ، وقيل : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، وقيل : ما أريد به وجه الله تعالى . . . وأما بقاؤها فبقاء عوائدها عند فناء كل ما تطمح إليه النفس من حظوظ الدنيا .

عليها ، وسلموا بقلوبهم وعقائدهم أعظم ما يكون الإنسان الرشيد ، حتى إذا انتهيت إلى هذه الآية الشريفة تكشفت لك حقيقة أقصى ما تزدان به هذه الحياة مما ينطبق على النفس البشرية انطباقا عاماً ، والابتلاء فى ذلك قائم فى ذات نفسه لاينفك عنه .

فقد انحصر متاع الحياة الدنيا فيما زين من شهوات : النساء ، والبنين ، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة الخ . وهذا ، على ما دلت التجارب المتكررة ، والوقائع المشاهدة فى عصور الحياة وأجيالها ، متاع متقلب لا ثبات له ، مهما تركزت فيه آمال ذوى النفوس الضعيفة ، وفى طغيان شهواته اضمحلال للقوى ، وانقراض للعمران .

فإذا طغت شهوة النساء على القلوب ، وتفاعلت بالغرائز ، تعرض الإنسان لأخطار جمة قاتلة : منها مايرتبط بالأخلاق ، ومنها مايتعلق بالصحة ، أما من الناحية الخلقية ، فانها دافع ملح فى إثارة العاطفة البهيمية ، فينطلق الإنسان كالحيوان ، لا يتدبر ولا يرعوى ، مضحياً فى سبيل قضاء وطره بكرامته وخلقه ، بل وبدينه أيضاً ، ومتى آلت الإنسانية إلى هذا المصير السيء ، رجعت القهقرى ، وأوشكت على الانهيار . وأما من الناحية الصحية فقد يشاهد الزناة يبوءون بأمراض خبيثة قتالة ، لاتنفك جراثيمها تلازمهم طوال حياتهم ، ويتأثر بها نسلهم .

أما البنين ، فالإجماع على أنهم بضعة من القلب ، وفلذة الكبد ، وشق الروح ، يؤثرهم الإنسان على نفسه ، ويسره أن يراهم سعداء رافهين ويسوءه أن تقع عينه منهم على ذلة ، أو شقاء ، فطغيان شهوتهم يهون على الإنسان اقتراف المحظورات ، ويربى عاطفة الأنانية ، فلا يتحرج عن الظلم إن وجد له مجالا ، ولايتورع عن اغتصاب الحقوق ، فإن كان من الدهماء انطلق

كالضوارى . يزعج الآمنين ، وإن كان ذو حيثية وجاه ، فإنه لايستقذر مد يده لرشوة دنيئة ، أو منحة حقيرة ، أو عطية آثمة ، يسعى لنفسه وبنيه ولا يحفل إن سعدوا بما يئن منه المجتمع من آلام وأحزان .

وليس معنى ذلك أن البنين كلهم شر ، وإلا تعطت الحياة ، وشلت حركتها ، وأصابها ما يشبه الركود ، وذلك ليس من أغراض الدين فى شىء ، إذ أن من بين الأبناء من هم ذخر لآبائهم فى الدنيا ، ومثوبة عند الله فى الآخرة . وفى أثر نبوى : «أو ابن صالح يدعو لك» فى صدد خالد الأعمال .

أما المال ، فقد تسكن إليه القلوب ، وتهوى الأفئدة ، لما أشيع من أنه أداة السعادة ، ومركب الهناء ، وفى الحق فإن المال سلاح ذو حدين : فإن استعمله الإنسان لصالحه ورصد مايزيد عن حاجته فى شئون العالم ومرافقه «ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو» كان المال له ، ونما ، وحفته البركة ، فيسعف به المحتاجين ، ويرد لهفة الملهفين ، ويقضى ضرورة المعوزين ، ويبذله فى سبيل رقى أمته ورفاهتها ، ومرضاة ربه تعالى : بأداء فرائضه من زكاة وحج وصدقات ، وإن استعمله فى غير أهدافه الطبيعية ، ومصارفه الواجبة ، ساقه إلى هاوية الآلام والأوصاب : فيضرب فى الأرض على غير هدى أو بصيرة ، يبدو به فى مظاهر الكبرياء والغطرسة ، ويرتطم بنوازع الشرور والآثام : من سكر وزنا ، ويضحى من أجل الحصول عليه بإنسانيته وكرامته : يسرق ، ويرتشى ، ويقامر ، ويتستر على البغايا ... الخ ، وهل ثمة أشد أثراً فى ضراوة الإنسان من المال ، وهل ثمة أجل موعظة وأبلغ عبرة مما ضربه الله تعالى لعباده من أمثال ؟ .

كيفية إفناء الدنيا ، وبعث الخلائق

وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ، وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ (١)

لقد عرض القرآن الكريم لنهاية العالم بأسلوب يخاطب العقول ، ويقرب إلى الأذهان صورة هذه النهاية واضحة الخطوط والمعالم ، مما لا يدع مجالا للشك فى قدرة الواحد الديان ، وإذا كانت الجبال ، وهى أضخم شىء لا تمتنع على إرادة الله ، فتعرى عنها الأرض ، التى يختل توازنها حينئذ ، فكيف يمتنع ما عداها حينما تقتضى الحكمة الإلهية زواله ؟ وإن هذه الآية

(١) « ويوم نسير الجبال » اى اذكر حين نقتلعها من أماكنها ونسيرها فى الجو على هيئاتها ؛ كما ينبىء عنه قوله تعالى : « وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب » أو نسير اجزاءها ، بعد ان نجعلها هباءا منبثاً . والمراد بتذكيره تحذيره المشركين مما فيه من الدواهى « وترى الأرض » أى جميع جوانبها ، والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد مما يتأتى منه الرؤية « بارزة » أما بروز ماتحت الجبال فظاهر ، وأما ماعداه فكانت الجبال تحول بينه وبين الناظر قبل ذلك ، فالآن اضحى قاعا صفصفاً لا ترى فيها عوجا ولا أمتاً « وحشرناهم » جمعناهم إلى الموقف من كل أوب ؛ « فلم نغادر » أى لم نترك . يقال : غادره وأغدره إذا تركه ، ومنه الغدر الذى هو ترك الوفاء ، والغدير الذى هو ماء يتركه السيل فى الأرض الغائرة « وعرضوا على ربك » شبهت حالهم بحال جند عرضوا على السلطان ليأمر فيهم بما يأمر « صفا » أى غير متفرقين ولا مختلطين ، وقد ورد فى الحديث الصحيح : (يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد صفوفا) « لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة » أى كائنين كما خلقناكم أول مرة ، حفاة عراة غرلا ، أو ما معكم شىء مما تفخرون به من الأموال والأنصار ، كقوله تعالى : « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ، وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم » .

وحدها كافية فى أن تبرئ مرض القلوب ، فهذا العالم بما أتاح الله له من مواد ناسفة وآلات قاطعة ، وما منحهم من قوى التفكير والتحايل فى شق الصخور ، ونحت الجبال ، وقطع الحجارة الضخام منها للانتفاع بها فى عمارة الأرض من بنايات رائعة ، وقصور شاهقة ، وجسور وصياصى ، وقلاع وما إليها مما يروع الأبصار ويثير العجب ، ومع ذلك فمنذ وجد العالم وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، لم يؤثر بأنه أزال جبلا من مكانه أو بدل شيئاً فى خلق الله ، وإن اتساق هذه الآيات مع ماقبلها ليكاد يشبه اتساق الأعضاء فى التركيب الجسمانى ، فقد خص ذكر الأرض فى زجر المنذرين ، ليكفوا عن غوايتهم الفاجرة ، وليطمئن المؤمنون ، ويزدادوا فيما هم بسبيله من صالح العمل « إنا جعلنا ماعلى الأرض زينة لها » وتتابع المناسبة مترابطة وثيقة حتى تجتاح جنتى الكافر ، وهى بضعة صغيرة من الأرض الكبرى . فإذا مضيت تقلب صحف المعانى ، فستبهرك عظمة القرآن الإلهى ، لأن من شأن الألوهية التنزه عن النسيان عموماً « وإن تكن حبة من خردل فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله » . أما جلال الله وجبروته وعظمته ، فلا يبلغ فيها الواصفون ما بلغته هذه الآية الطاهرة « وعرضوا على ربك صفاً » لا فرق بين ملوك ورعية ، عواهل ودهماء ، أمراء وصعاليك ، جبارين وأذلاء ، مستبدين وضعفاء ، طغاة وغوغاء ، فالجميع بين يدى رب الأرباب ، عبيد معاوين ، متجردين عن هذه المظاهر الجوفاء التى كانت السبب المباشر فيما يلقاه المنذرون إذ ذاك من سوء المنقلب .

فهذه الآية الكريمة تؤيد ماذهبنا إليه آنفاً من أن كل مايمتلكه الإنسان فى هذه الحياة عارية مستردة ، إلا ماتزوده من الأعمال الصالحة .

تسفيه المنكرين للبعث وتانيبهم حينما يقفون بين يدى الله

بَلْ زَعَمْتُمْ أَن لَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا

تدبر فى ريث وأناة آى الذكر الحكيم ، وفتش ماذا بقى فى صدرك من ريب فيما وراء هذه الحياة الدنيا . فهذا الموت باب الآخرة قد ولجته أمم آمالها واسعة عريضة ، وعصور وأجيال ، لم يبق مما كانت تشيده ، وتجود فى فنونه إلا آثاراً تنطق بمرتهم ، وقوة مراسهم وشدة شكيمتهم وشغفهم بالحياة ، فآدهم المنون ، وقد ألقى إلى خلفهم سجلا من الذكريات حافلا بالمواعظ والعبر ، وبالطبع فهؤلاء سبقونا إلى الوقوف على كنه هاته الحياة الآخرة ، ومنهم من كان يبلغ إنكاره لها مبلغ اتهام الموقنين بالرجعية والاقتناع بالأساطير ، كما يفعل سفهاء كل عصر ونفايته . وآنما يبلغ الكتاب أجله ، وينفض العالم يديه من الحياة الدنيا ، ويحين زمن البعث العام ، ويكشف عن المنكرين الغطاء ، ويصير بصرهم حديداً . فثمة يتحقق لهم ماكان يتحقق للمؤمنين . وحينئذ يصمى أفئدتهم الندم على إنكار الحقائق التى كانت تدعمها أدلة مادية ملموسة ، فأعماهم عن استكناهها منازع الهوى وطغيان الأمانى الجسمانية ، ويشعرهم التسفيه والاستهزاء ، بحقارتهم « بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً » أكنتم أيها المجرمون على حق فى زعمكم بعد ماتحققتم الآن من خطل إنكاركم : ويزيد فى نفوسهم الخوف والذعر من العقاب الأليم الذى هم منه على رمية حجر .

شدة ندم المنذرين يوم القيامة ، وأسفهم على ما جنته أيديهم

وَوُضِعَ ٱلْكِتَابُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ، وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (١)

ومما يتماشى مع العقول أن يكون لكل إنسان سجلا تحصى فيه حركاته وسكناته ، وهى العمل المادى ، ونظراته وألفاظه وهى مظهر الداخل من معنوياته ، ولو لم يكشف كتاب الله عن هذه الحقيقة ، لكان محل تساؤل من العقلاء والمفكرين . لماذا أهملت الإشارة إلى هذا النظام ، مع لزومه لمقتضيات البداهة والزجر ، ولكن لما كان القرآن من لدن حكيم خبير ، كانت جميع آياته ظاهرة الصدق ، كريمة المعنى ، دقيقة البيان . فهى إما أن تقرر قاعدة تشريعية فى الأخلاق والعقيدة ، أو سياسة الاجتماع ، وإما أن توجه البصائر نحو المغيبات المرتبطة بكيان الإنسان ، فى حدود المعقول . كما تنطق الآيات التى نحن بصددها فقد أخذ العالم الحديث بنظام الإحصاء ، فكل دولة تسجل رعاياها ذكوراً وإناثاً من اللحظة التى يولد فيها الذكر

---

(١) « ووضع الكتاب » أى وضع صحائف الأعمال . والمراد بوضعها إما وضعها فى أيدى أصحابها يمينا وشمالا ، وإما فى الميزان . « فترى المجرمين » فاطبة ، فيدخل فيهم الكفرة المنكرون للبعث دخولا أولياً « مشفقين » خائفين « مما فيه » من الجرائم والذنوب « ويقولون ياويلتنا » منادين لهلكتهم التى هلكوها من بين الهلكات ، مستدعين لها ليهلكوا ، ولا يروا هول ما لاقوه ، أى يا ويلتنا احضرى ، فهذا أوان حضورك « حاضراً » مسطوراً عتيداً . « ولا يظلم ربك أحداً » فيكتب ما لم يعمل من السيئات ، أو يزيد فى عقابه المستحق ، فيكون إظهاراً لمعدلة القلم الأزلى .

والأنثى ، فإذا شب أحدهما عن طوقه ، وسلك ميدان العمل ، تلقاه نظام تسجيل إنتاجه . فكيف تهمل السماء — وهى المهيمنة على شئون البشر — هذا الأمر مع مافيه من حكمة ودقة ، تنفى مظنة الحيف والجور . ومن البديه بالضرورة أن المجرم قد يسقط فى يده حينما تعرض عليه أعماله ، أسوأ ما يكون الإجرام ، وأخبث ما تكون الآثام ، ولايجد ما يدافع به عن نفسه ، كما يحدث ممن يرتكب فى الدنيا جرماً ، ويساق للمحاكمة ، فإن وجيب قلبه يزيد كلما حان وقت الفصل ، ويدرك هول العقاب الذى تستأهله جريرته .

هذا ، ولما كانت جميع أعمال الإنسان من حركات وسكنات وأقوال محصية مسجلة فهى التى ستنطق يوم القيامة بالحكم على صاحبها : إما بالسعادة التى لاضير فيها ، وإما بالشقاء الذى لا تمر به فترة صفو . ومن ثم فى هذا الموقف الرهيب تتقرر العدالة الحقة ، ويوضع الميزان بالقسط ، ويعلن الأمر الإلهى : لاظلم اليوم . ويقوم العباد بين يدى إله رحيم ، قال : مايفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم » .

ومن ثم ينقسم العالم إلى أحد اثنين : مناد يطير فرحا وسعادة : «هاؤم اقرءوا كتابيه إنى ظننت أنى ملاق حسابيه ، فهو فى عيشة راضية . . » ويائس يتملكه الهول ، كان يرجو الفناء صارخا ضارعاً « يا ليتنى لم أوت كتابيه . . . . خذوه فغلوه » .

إذن فخاتمة هذه الآية الشريفة التى تصف حالة العالم ، وقت القضاء العام فى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ، كان ختاماً حكيما دقيقاً ، يشفى صدور قوم مؤمنين « ولا يظلم ربك أحداً » أجل فإن الظلم شنشنة الأخرق العاجز أما رب الأرباب فتنزه وعلا ، وسبحان الذى أنزل على عبده الكتاب ، ولم يجعل له عوجا قيما .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ(١)

هذا وإن من البديهيات المعترف بها اعترافاً عاماً أن الله جل شأنه قد خلق عناصر الكون ، جوية وأرضية وجميع الكائنات الحية الأخرى ، وهيأها لتكون من وسائل بقاء النوع الإنسانى الذى خصه الله سبحانه ، لتكون مظهر ربوبيته ، ومهبط وحيه ، ومجتلى أسرار وحدانيته ، لذلك كان الإنسان موضع التكريم والتمجيد ، لا فى الأرض وحسب ، بل وفى السماء أيضاً ، وأعنى به الإنسان الذى برئت هيولته من غواشى الجحود ، وصفى قلبه من جوائح الشكوك والريب وهذبت نفسه وسمت عواطفه ، وانطبع فى عقله كينونة الملإ الأعلى ، فعرف خالقه المتعال ، وتقرب منه قرباً يشع فى محياه نوراً متلألئاً ، ويبدو فى غدواته وروحاته ورعا واستقامة ، ويرافقه فى معيشته الدنيوية زهداً وقناعة .

فقد عرفت تكريم البشرية فى الأرض ، مما مر بك من مثل أهل

(١) « اسجدوا لآدم » سجود تحية وتكريم .
« فسجدوا » فيما امتثالا للأمر .
« إلا إبليس » فانه لم يسجد ، بل أبى واستكبر .
« ففسق عن أمر ربه » أى خرج عن طاعته ، أو صار فاسقاً كافراً بسبب أمر الله تعالى له إذ لولاه لما أبى . والمراد بتذكير قصته ، تشديد النكير على المتكبرين المفتخرين بأنسابهم وأموالهم ، المستنكفين عن الانتظام فى سلك فقراء المؤمنين ببيان أن ذلك من صنيع إبليس ، وأنهم فى ذلك تابعون لتسويله .

الكهف . والمؤمن الفقير الذى فند مزاعم الكافر واغتراره ، فإذا قضينا مطاف الأرض ، وتطلعنا إلى السماء ، لألفينا تكريم النبوة ، وهى ما هى قرباً من الله ومثالا رفيعاً فى التوحيد ، وشمساً وضاءة فى الطاعة والعبادة ، ومعرفة شاملة لقوانين الإيمان ، والخلق ، وإلماماً تاماً بدستور السماء . فقد أراد المولى عز وجل أن يكرم النبوة خاصة والإنسانية الطيعة الموحدة عامة فى شخص أبى البشر سيدنا آدم عليه السلام . فأمر الملائكة بالسجود له ، رمزاً على رفعة البشر وعلو مقامهم . ولما كان الملائكة مفطورين على الطاعة ، لأن عنصرهم النورانى يخلو من عوامل الحسد أو التوانى والتقاعس فى أمر الله . لبوا ساجدين . بيد أن إبليس ، وهو من عنصر نارى ، ممتزج بالأرض ، فقد برزت فى هيولته نزعات الحسد ، وطغت على مشاعره عواطف الكبرياء والغرور ، فلم يجب داعى الله ، وخرج على التكليف الربانى « قال أأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون » . إلى آيات لا تحصى ، وهى مجتمعة ترسم صورة ناطقة لأول مخالفة ، بل لأخبث معصية وجدت فى العالم ، لذلك كان عقابه « أخرج منها مذموما مدحورا » — « لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين » فأقصى من حظائر النورانية الطاهرة ، إلى عماية الظلمانية الشريرة . ولم تحمه جنسيته الجنية من عقاب الله سبحانه وتعالى ، وكيف يتأتى ذلك ، وجميع الخلائق بين يدى الله ضعافا عاجزين لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرا إلا ما أراده تعالى ، فلا الجن ، ولا الملائكة ولا الإنس ولا الخلائق الأخرى إلا عبيداً ، لا يستعصون على قضاء خالقهم كل حسب الدواعى التى يترتب عليها هذا القضاء .

تسفيه من يغتر بخيالات إبليس

أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي ، وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا (١)

يستمر الإنسان فى فسحة عن المؤاخذة طالما هو لم يلمّ بوجوه المعرفة من نافع وضار . فإذا علم ذلك ، وفتحت أمام عقله جميع مرامى التأمل ، والاستدلال ، فانه يقيد فى هذه الحالة بالتكليف ، ويدخل فى نطاق من نضجت إنسانيتهم ، واكتمل نموهم العقلى ، وتأهبوا للفهم والاستدلال . ومن يصل إلى هذا الطور كان غير خليق به أن ينزل عن مستواه ، إلى أحط ما يرتكس فيه الجاهلين الحمقى .

فقد بدأ إبليس بعداوة البشر ، واستكبر عن تكريم أبيهم ، زاعما أنه خير منه ولم يقنع بذلك ، بل ذهب إلى أبعد حدود الكيد والوقيعة فأعلن حربا زعزعا على البشرية ، بأنه سينتهك حرمة من يقع فى مخالبه ، ويحدو

(١) (أفتتخذونه) الخ ، فان الهمزة للانكار والتعجيب ، والفاء للتعقيب ، أى أعقيب علمكم بصدور تلك القبائح عنه تتخذونه (وذريته) أى أولاده وأتباعه ، جعلوا ذريته مجازاً قال قتادة : يتوالدون ، كما يتوالد بنو آدم ، وقيل : يدخل ذنبه فى دبره ، فيبيض ، فتنفلق البيضة عن جاعة من الشياطين .

(اولياء من دونى) فتستبدلونهم بى ، فتطيعونهم بدل طاعتى .

(وهم) اى والحال ان إبليس وذريته

(لكم عدو) اى اعداء ، كما فى قوله تعالى : (فانهم عدو لى إلا رب العالمين) وقوله تعالى : (هم العدو) وإنما فعل به ذلك تشبيهاً له بالمصادر .

به إلى الهلاك « لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين » — « لأقعدن لهم صراطك المستقيم » .

فهل بعد أن يعلم الإنسان ذلك يليق به أن يتولى من صرح بعداوته ، وكشر له عن نابه وخصه بضراوته وشره ؟ حتى ولو عرض عليه ألوان اللذائذ وخيل له بأنواع المغريات . وإن سال على متنها الذهب النضار ، وإن ابتسمت على حواشيها الورود النواضر ، والأقاحى الزواهر . وأى غباء يتصف به من يتولى عدواً أخبث عدو ، لاتتوقف ضراوته على زمن مخصوص ، وإنما هى مطلقة عامة تدور رحاها فى هذه الحياة الفانية ، وتظهر آثارها فى خلود الآخرة . وأى ظلم هذا الذى يزج فيه الإنسان نفسه ، بما يرتضيه من مخالفة السنن العقلية ، وموالاة من كان يخلق به أن يكون أشد عداوة لهم ، منهم له ؟ !

تقرير أن كائناً من كان لايطلع على غيب الله

مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ

وإن من أعجب العجب أن يتوهم بعض الخثالة أن للجن صلة بعالم الغيب ، وقد نشأ هذا الوهم فى روعهم من اختفاء هذا العالم وراء آفاقه المقررة ، كما اختفى العالم الملائكى وراء آفاقه العليا ، وكل نوع مطلع على خفايا جنسه وشئونه اطلاعا يعلمه الله ، كاطلاع النوع الإنسانى على عالمه فى أقصى الأرض وأدناها ، ولم يطلع أحد من هذه العوالم ، وغيرها مما لايعلمه إلا الله ، على ماعدا عالمه إلا بمشيئته تعالى ، ولمهمة ضرورية ، وبدافع من هذا الوهم زعم بعض الخياليين أن الجن أرواح شريرة لها قدرة التصرف

فى إحالة الخير شراً ، كما زعموا أن الملائكة أرواح خيرية ، لها كذلك قدرة التصرف على إحالة الشر خيراً ، وفى الواقع فان مهمة هذا أو ذاك تتركز فى أن للجن نزغات فاجرة تقوم على رغبة أبيهم الشريرة فى الانتقام من البشرية ، وأزهم بالمفاسد ، وذلك بكيفية يعلمها الله تعالى ، أو بواسطة الإيحاء النفسانى ، والتخييل بالمغريات التى تزينت بها الحياة ابتلاء للعباد وتمييزاً بين التقى والغوى . أما الملائكة فوظيفتهم الطاعة والعبادة ، وتأدية وحى الله فيما يصلح حال المجتمع الإنسانى ، وماعدا ذلك فلا اطلاع لأحد على الغيب ، ولا قدرة له على هتك سدفه ، لأن المولى جل شأنه لم يخلق فى عباده الاستعداد لهذا الأمر الخطير ، وكم هو سخيف اعتقاد كثير من السوقة فى أن لأحد كائناً ماكان ، سواء كان من الجن أو الإنس أو الملائكة علم بالمستقبل ، أو معرفة بالغيب ، مع أنهم لم يشهدوا خلق السموات والأرض حتى ولاخلق بعضهم بعضاً ، وكيف يتأتى علم الغيب لمن لم تتوافر فيه شروط هذه المشاهدة .

تهجين من يصف الإله بصفات الحوادث

وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً (١)

هذا ، وإن من خصائص الألوهية القدرة المطلقة ، والاستغناء الشامل ،

(١) (عضداً) فى شأن الخلق ، او فى شأن من شئونى ، حتى يتوهم شركتهم فى القول ، بناء على الشركة فى بعض احكام الربوبية ، وفيه تهكم بهم ، وإيذان بكمال ركاكة عقولهم ، وسخافة آرائهم ، حيث لا يفهمون هذا الأمر الجلى الذى لا يكاد يشتبه على البله والصبيان ، فيحتاجون إلى التصريح به .

والانفراد بالخلق والإعدام . والهيمنة الكاملة على شئون المخلوقات من إنس وجن وملائكة ، وخلائق لايحصيها إلاهو من كائنات حية ، وجمادات ونباتات ، الخ . ولم يؤثر قط لا بنص دينى ، ولا استنباط عقلى ، أن مخلوقا ما تصرف تصرفا إلهيا ، مما هو خارج عن سياج عبوديته الذليلة الخاضعة المحتاجة إلى مدبر حكيم . وإن مما يثير الضحك والتندر اعتقاد كثير من الجهال بأن للشياطين تصرفا فى الأكوان ، ودخلا فى أحوال البشر . وإذا جاز فى منطق الافتراض الجدلى ذلك ، مع تجنبه للمعقول ، فهل يجوز أن يظفر بهذا المجد المؤثل ، مضل شرير ؟ لاجواب ، اللهم إلا نظرة تحقير ، وأسف أسيف .

عجز شركاء الكافرين وخرقهم

وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا(١)

فحينما ينضى عن الإنسان طور الطفولة ، وتطويه دائرة التكليف ، يلفى نفسه أمام دستور إلهى ، ينظم حياته الاجتماعية ، من ناحية كونه لبنة فى كيان الجماعة الإنسانية ، وينظم عقيدته من ناحية كونه أحد أفراد الموحدين ؛

(١) « موبقاً » اسم مكان ، أو مصدر من وبق وبوقا ، كوثب وثوباً ، ووبق وبوقا ، كفرح فرحا ، إذا هلك ، اى مهلكا يشتركون فيه ، وهو النار ، او عداوة هى فى الشدة نفس الهلاك ، كقول عمر رضى الله عنه : لا يكن حبك كلفاً ، ولا بغضك تلفاً ، وقيل : البين الوصل ، اى وجعلنا تواصلهم فى الدنيا ، هلاكا فى الآخرة ، ويجوز ان يكون المراد بالشركاء الملائكة ، وعزيراً ، وعيسى عليهم السلام ، ومريم ، وبالموبق البرزخ البعيد ، اى جعلنا بينهم بامداً بعيدا يهلك فيه الأشواط ، لفرط بعده ، لأنهم فى قعر جهنم ، وهم فى اعلى الجنان .

والأمر الأول مرتبط بالأخير . ولا يستقيم إلا داخل حدوده . لأن توحيد الله تعالى فى الواقع هو الدعامة التى يرتكز عليها كل صالح . وهو الباعث على كل فلاح ، والمنقذ من كل ضلال . وأخيراً هو بمثابة الوقاية التى تحول بين الإنسانية وبين الارتطام بالشرور والآثام مطلقا . والإنسان ـ كما علمت ـ أحد اثنين : مؤمن . عاقل . تنقدح فى قلبه الحقائق اللدنية ، فيتخذ من عبادة الله وحده ، ومن أوامره تعالى ونواهيه ، ربيئة تصد عنه تيارات الهوى والآثام . وهذا بطبيعة الحال . قد ظفر برضوان مولاه ، وثوابه الجزيل . وإما كافر مستهتر . يسعى فى الأرض كالأفعى ، ينفث سموم الجرائم ، ويبذر قتاد الفساد . لاتسلك المواعظ إلى قلبه ، بل تصفق فى أذنيه حبباً لا يلبث أن ينحسر عنها . وقد ردها وقر كثيف فى أذنيه عن اتخاذ مجراها الطبيعى .

ولما كان الإنسان بحكم فطرته يشعر فى أعماق نفسه بحنين إلى الاعتقاد فى قوة خفية يكل اليها التصرف فيما يفاجئه من طوارىء الغيب ، فان نفس الكافر تسكن إلى مايخيله له الوهم من الاعتقاد فى الجن والأوثان وما اليها من معتقدات صبيانية مخزية ، طيلة حياته حتى تنقضى تحت كلكل هذا العبء الموقر ، فاذا حان زمن البعث ، وهلعت نفسه من هول الموقف وتاهت نظراته وجلا وزعراً ، يلتمس منقذاً ، ويفتش عن شافع . ولما يرتد إليه طرفه خاسئاً حسيراً ، يُذكر بالشركاء الذين أنساه الهول تذكرهم ولما كان شأنه ثم كالغريق ، يتعلق بما لايجديه ، فسرعان مايستصرخ متلهفاً ، بيد أن صياحه يذهب أدراج الرياح ، ولا يرجع إليه بطائل ، فتتضاعفه حسرته ، ويتضخم الجزع فى قلبه ، ويتخبط بين ولى أخرق ، وعذاب محقق

يأس المجرمين عن النجاة من النار

وَرَأَى ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ ، فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا(١)

وبعد أن يقضى الله بين الخلائق ، ويتميز الخبيث من الطيب ، ويخطر المبشَّرون صوب الجنة يفيضون بشراً وسعادة . وفى هذا الوقت ذاته ، يُحطأ المجرمون إلى النار ، أشقى مايكونون ، وأضرع مايكونون ، وأذل مايكونون ، وقد فجعتهم الحسرة ، وضعضع الندم قواهم على إيثارهم حياة فانية خلفوها وراءهم بطمها ورمها ، بملاهيها ومباذلها ، وكانت هدفهم الأقصى فى البقاء ، مع كثرة ما أقامته السماء من براهين على زوالها ، والترفع عن الاغترار ببريقها ، وكثرة ماقررته من أن الانحراف من جادة الاستقامة يترتب عليه سواء السعير ، وأن الآخرة خير وأبقى ، فقابلوا ذلك بالإنكار والجحود ، وعكسوا أوامر الله نواهى ، ونواهيه أوامر ، تتفتح قلوبهم لزهرة الدنيا ، بينما تنغلق عن توجيهات الإسلام ، حتى إذا ظهر لهم خطل ماكانوا يضطربون فيه ، ويشجيهم نعيقه ، وينكشف لهم فى حاضر الآخرة حينذاك ، ماكان يخيل إليهم أنها أسطورة ، فأنكروا مستقبلها فى حاضر الدنيا ، أيقنوا بالثبور ، الذى لامصرف لهم عنه : لامال ، ولاجاه ،

(١) « فظنوا » أى فأيقنوا « أنهم مواقعوها » مخالطوها ، واقعون فيها ، أو ظنوا إذ رأوها من مكان بعيد انهم مواقعوها الساعة . « ولم يجدوا عنها مصرفا » انصرافا ، أو معدلا ينصرفون إليه .

ولا سلطان ، ولا أولياء ، ولا أبناء . ولا آباء ، يوم يقول الكافر ياليتنى كنت ترابا ، كحالتى قبل التكوين ، أى مهيناً تطؤه النعال على أن يغمس فى الجحيم الفائر غمسة واحدة . ولكن أنى يتحقق له هذا الأمل ؟

شمول القرآن على جميع شئون العالم

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ (١)

سبق آنفا أن أشرنا إلى ما اشتمل عليه كتاب الله من علوم ومعارف يستقى منها العلماء والأدباء والمصلحون مايحتاجون إليه فى تنظيم شئون المجتمع ، وسياسته سياسة حكيمة رشيدة . وإذا كان المقام يقتضينا العود إلى التحدث عما لهذا الكتاب الكريم من آفاق واسعة يجد فيها الباحث مادة لما يتطلع إليه ، فما ذلك إلا أثراً من آثار عظمة القرآن ، وأنه من لدن عالم الغيب والشهادة .

ولا ريب فى أن العالم لن يبلغ ركبه ضفاف السلامة والنجاة ، حتى يخلع عنه هذه المادية الجارفة التى اكتسحته أخيراً نتيجة انغماسه فى حمأة الدنيا ، وتركيز جهوده ومساعيه من أجلها ، والتفنن فى زخرفها ؛ ويريم صوب القرآن الكريم يتفيأ ظلال هديه ، ويستصبح بسناه ، ويتخذ من قوانينه عصمة له عما يصادفه فى حياته من مشاكل معقدة ، لاسبيل للعقل

(١) « ولقد صرفنا » أى كررنا ، وأوردنا على وجوه كثيرة من النظم « فى هذا القرآن للناس » لمصلحتهم ومنفعتهم « من كل مثل » من جملة ما ضرب من مثل الرجلين ، ومثل الحياة الدنيا ، أو من كل نوع من أنواع المعانى البديعة الداعية إلى الايمان ، التى هى فى الغرابة و الحسن ، واستجلاب النفس كالمثل ، ليتلقوه بالقبول ، فلم يفعلوا .

البشرى إلى حلها خارج نطاق هدى السماء ، ولا بد للعالم من الرجوع إليه آخر الأمر ، مهما شطحت به الغواية . فستدهده الشرور قواه ، وتتمخ عظامه ، وتهدم كيانه ، ثم لايجد مفراً من الالتجاء إلى حماه ، والتطامن لحكمه ، رضى أو لم يرض ، طال الزمان أو قصر .

مكابرة الإنسان وجدله فى الحقائق الواضحة

وَكَانَ ٱلْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا(١)

وإن من عجيب أمر الإنسان أنه رغم ما أتيح له من عقل يستطيع أن يزن به كل مايعرض عليه من أمور تحتاج إلى العقل ، ورغم مامنحه من ملكات التفكير والتروى ، وتخليص الحق من الباطل ، فإنه يقف فى كثير من الحقائق موقف بلاهة وعته ، وليس به شىء من البلاهة والعته ، وإنما غرور النزق ، وهوس الهوى ، دفعه دفعاً لأن يكابر فيما لامكابرة فيه ، وأن يتخذ الباطل وسيلة فى طمس معالم الحق ، ويجرد من لسنه سلاحا يشهره فى وجه من يفصح له عن اليقين ، وذلك تمشياً مع هواه ، كيلا يحول بينه حائل من رشاد ؛ والإنسان وحده من بين جميع الخلائق هو الذى وصمته هذه المذمة ، ولو أنه قدر قيمته كإنسان جعله الله محوراً للحياة ، لأنف عما لا يليق به ، ولسلك طريقاً آخر من التبصر والهدى ؛ والرجوع إلى الحق .

(١) « وكان الانسان » بحسب جبلته « أكثر شىء جدلا » أى أكثر الأشياء التى يتأتى منها الجدل ، وهوهنا شدة الخصومة بالباطل والمماراة ، من الجدل الذى هو **الفتل** والمجادلة الملاواة ، لأن كلا من المجادلين يلتوى على صاحبه .

تقرير أن كثيراً من الناس لاتكفى الأدلة فى إقناعهم ، حتى يروا العذاب

وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى ، وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا (١)

فلما نطق القرآن الكريم بأدلة اليقين ، فى أسلوب جلى مبين ، لوى أعناق العباقرة ، وقسرهم على الإقرار ببعده عن المظنة البشرية . حتى لقد اجتذب إلى هديه قروم العرب ، مع شدة تحرجهم عن نقض ما ألفوه من عادات ، وما درجوا عليه من تقاليد ، حتى ليؤثر أن العربى الصميم ، يهرأ جسمه ، ولا يتسامح فى إفلات ماعقد العزم على التمسك به ؛ فلما تلى القرآن على أسماعهم ، وهم أعرف الناس بشجون اللغة ، وشعابها ، وطرائق فنونها ، ومراميها وأغراضها ، هفت نفوسهم إليه ، وآمنوا إيماناً مصدره العلم والاقتناع ، بأن السماء قررت وضع حد للفوضى التى اختلجت فيها الإنسانية ، وتحققوا من دعوته الكريمة الجدية ، بأنه أصبح لامجال بعد للعبث والهزل ،

(١) « وما منع الناس » أى أهل مكة الذين حكيت أباطيلهم . « أن يؤمنوا » من أن يؤمنوا بالله تعالى ، ويتركوا ماهم فيه من الاشراك «إذ جاءهم الهدى» أى القرآن العظيم الهادى إلى الايمان بما فيه من فنون المعانى الموجبة له « ويستغفروا ربهم » عما فرط منهم من أنواع الذنوب التى من جملتها مجادلتهم للحق بالباطل . « إلا أن تأتيهم سنة الأولين » أى إلا طلب إتيان سنتهم ، أو إلا انتظار إتيانها أو إلا تقديره . وسنتهم الاستئصال . «أو يأتيهم العذاب » أى عذاب الآخرة « قبلا » أى أنواعا ، جمع قبيل ، أو عياناً ، كما فى قراءة قبلا - بكسر القاف ، وفتح الباء ، وقرىء بفتحتين ، أى مستقبلا . يقال : لقيته قبلا ، وقبلا ، وقبلا ، والمعنى أن ماتضمنه القرآن الكريم من الأمور المستوجبة للايمان بحيث لو لم يكن مثل هذه الحكمة القوية ، لما امتنع الناس من الايمان ، وإن كانوا مجبولين على الجدل المفرط .

وأن من رغب فى الرفعة والسمو ، فليرضخ لإرشاداته ، وسرعان ما أسلسوا قيادهم لتعاليمه التى وجهتهم إلى زعامة العالم . واقترن ذكرهم بالرهبة والجلال .

والأدلة متوافرة على إيثار المؤمن عقيدته . وتعلق قلبه بالوحدانية الخالصة التى استقاها من القرآن ، على ماينالـه من آلام جسمانية فى سبيل عقيدته . فكان العربى المؤمن يجرد من ثيابه . ويلقى فى ضاحية الشمس مكبلا عريانا ، وجزيرة العرب ـ عرضة لحرارة الشمس المحرقة ، لطبيعة موقعها الجغرافى . وهو مع ذلك ، لايفتأ يسبح « أحد ـ أحد » وحدانية وحسب لاشركاء كما يهرف المأفونين ، فيوغر صدر مولاه . ولايجد حيلة يزهبه بها على كثرة ماجربه من ألوان العقاب والتعذيب . ولكنه الإيمان وليد المعرفة والاقتناع ، لاتؤثر فيه الزوابع ، ولاتزعزعه الأنواء والصواعق .

فهل يليق بعاقل أن ينحرف عن هذا الهدى الواضح ، ويلج مع المنذرين فى عمايتهم حتى يفجأه عقاب السماء الذى فاجأ من سبقه ، فيما غبر من أمم وأجيال ؟

مهمة رسل الله ، والمقصود ببعثتهم

وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ (١)

تستفتح هذه السورة الشريفة ـ كما علمت ـ بالمهمة الخطيرة التى نيطت بالرسول الأمين ﷺ ، وهى : إنذار الآثمين بماهم عرضة له دائماً من عقاب صارم ، وأهوال ساحقة ، فى الدنيا والآخرة ، وبشارة المؤمنين فى الدنيا

(١) « وما نرسل المرسلين » إلى الأمم ، متلبسين بحال من الأحوال . « إلا » حال كونهم « مبشرين » للمؤمنين بالثواب « ومنذرين » للكفرة والعصاة بالعقاب .

بحماية الله ورضوانه ، وفى العقبى بالنعيم الرفه فى خلود الآخرة ، وتتتابع الآيات تفصل حقيقة الفريقين ، والآثار المترتبة على سلوك كل منهما ، سواء من ناحية العمل ، أوغايته المحتومة ، تفصيلا دقيقاً جليا لا لبس فيه ولا إبهام ، وإنه من الوضوح بحيث لايتجادل فيه إلا المتعنتين ، ذوى الأغراض الخبيثة ، الأشرار اللئام ، فاذا انتهيت إلى نقطة معينة ، بعد عرض قصة فتية برزة أطهار ، وما قام بينهم وبين أهل جيلهم من صراع جبار ، بين تخضيد شوكة الإيمان ، وبين الاستهزاء بالكفر ، ولا إخالك وقد تلوت « فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر » وطعمت مغذاها الجليل وهى تحض على الإيمان كما لم يحض عليه صمصام يستله كمى ، وتحذر من الكفر كما لم يحذره زاجر ، تبين الرشد من الغى ، فليسلك منكم مايهوى ، وتأخذ الآيات فى تعريف نهاية كل من الفريقين ، وفيما بين ذلك تميل إلى الدنيا فتهيل عمارتها وزينتها ، كنبات اجتوفه السيل ، فاستحال إلى هشيم تذروه الرياح . وبعد استقامة هذه الصورة ، وتركيزها فى الأذهان ، على ما انطوت عليه الصحف السالفة ، ليقلع الغواة عن الحكم على أنفسهم بشقاء الأبد ، ويطمئن التقاة بما تهيأ لهم من سعادة وإعزاز . ومن ثم تنتهى مهمة الرسل ، وهى التبشير والإنذار وحسب ، أما ما وراء ذلك فمن خصائص الألوهية القادرة . فالرشيد الكيس هو الذى يتدبر هذه المعانى الثمينة . ويكون نفسه عن طريقها تكويناً دينياً ، يخلوعن هذه المهازل التى يجمح اليها هؤلاء الذين عضوا بنواجذهم على عبث الجرائم الخلقية والاجتماعية ، ويحيا حياته إرهابيا شريراً ، يزعج أبناء وطنه بجرائمه وآثامه ، سعياً وراء لذة عجلى ، أو رغبة فاجرة .

وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ(١)

فقد يحرص الكافر ، أو بعبارة أخرى ، المنذر على التستر بمغالطات لاترتكز على أساس من عقل أو منطق ، ولا تدعمها الوقائع المادية ، فى الوقوف أمام دعوات الهداية والرشاد . وذلك تمشيا مع رغباته فى استيعاب الهويات الآثمة التى تنبو به دائما عن جادة الاستقامة والصواب . فيتخذ من الحجاج والباطل ، والنقاش الأجوف مجالا يسكب فيه عصارة خيالاته ، كى يجد الوسائل التى يستر خلفها الصغار الذى يلاحقه ، حينما يجانب الكمال الإنسانى ، القائم على الفضائل والأخلاق ، تلك التى كشف عنها القرآن ، وأبرز معالمها .

وإن دل ذلك على شىء ، فإنما يدل على مدى الانحطاط الخلقى والاجتماعى الذى انحدر إليه المنذرون ، نتيجة تخطيهم حدود الله ، ومجاوزتهم أوامره الحكيمة ، واستسلامهم لتيارات المغريات الدنيوية ، والانصياع للنزوات البهيمية ، انصياعاً أملى عليهم أساليب الباطل ، فى عبارات ، وإن كانت موضع استنكار ضمائرهم ، إلا أن نفوسهم الشريرة تسكن إلى بريقها ، بل ويذهبون إلى أبعد من ذلك فيتوهمون أنهم أسكتوا صوت الحق ، ودحضوا براهينه . بيد أن الحق أمنع من أن تصل إليه سهامهم ، أو ينال

(١) «ويجادل الذين كفروا بالباطل» باقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات ، والسؤال عن قصة أصحاب الكهف ونحوها تعنتا « ليدحضوا به » أى بالجدال « الحق » أى يزيلوه عن مركزه ويبطلوه ، من إدحاض القدم ، وهو إزلاقها ، وهو قولهم للرسل عليهم الصلاة والسلام : « ما أنتم إلا بشر مثلنا ، ولو شاء الله لأنزل ملائكة »، ونحوها .

منه عجيجهم . ولا يابث قائماً يحدو بالمؤمنين إلى المعرفة والسعادة ، ويقذف بالكافرين الأشرار من حالق ، فيذقوا وبال أمرهم . وما اجترحوا على الحق من باطل مموه ركيك .

إمعان الكفار فى جهالتهم ، والاستهزاء بآيات الله ونذره

وَاتَّخَذُوا آيَاتِى ، وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا(١)

ولم يقف الكفار عند حد الجدل الباطل ، فى مغالبة الحق وطمسه ، لتنفرج أمامهم فجاج اللهو واللعب ، ولكنهم إلى جانب ذلك فقد انماعوا فى عماية الضلال ، وخبث الطباع ، وقابلوا القوانين الربانية بالإهمال والتمرد وأرخى لهم انبساط الرزق ، وفسحة الأمل ، حبائل الركون إلى ما ألفوه ولم يكلفوا أنفسهم الالتفات للخلف . وإلقاء نظرة عابرة على الماضى البعيد أو القريب ، ليستخلصوا العبر من ماجريات القدر ، والعقاب الماحق الذى حطم أمما كانت أوسع آمالا فى الحياة ، وأنبغ فنا فى تجميلها ، وأطول باعا فى عمارتها ، وكيف كان عاقبة استهزائهم بنذر السماء ، كما لم يكلفوا أنفسهم تخطى دورة الحاضر ، لينظروا ماذا يخبئه المستقبل الذى يستحث خطواتهم إليه كر الغداة والعشى ، فيما حذرهم منه كتاب الله ، ولكنهم لم يفعلوا هذا ولا ذاك ، وأطلقوا لمشتهياتهم العنان ، فوثقوا بالدنيا ، وأولوها عنايتهم واهتمامهم ، وجهدوا فى سد الذرائع التى تحيل صباغها ، كيلا تتأثر

(٢) « واتخذوا آياتى » التى تخرها صم الجبال « وما أنذروا » أى أنذروه من الفواجع الناعية عليهم العقاب والعذاب ، أو إنذارهم « هزواً » استهزاء ، وقرىء بسكون الزاى ، وهو مايستهزأ به .

قلوبهم بتصول خضابها الكاذب ، ويقسرهم ذلك على الاستراحة فيها ، والاقتناع بالدين ، وما أنذر به المجرمين من عقاب تتمثل فيه أبشع ألوان الذل والمهانة عاجلا وآجلا .

ظلم من يعرض عن آيات ربه ، وينسى ما أسلف من شرور

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ، فَأَعْرَضَ عَنْهَا ، وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ

اجلس أنى شئت إلى كتاب الله ، وتدبر أية آية تصادفك فى أعلى صحفه أو وسطها أو عقبها ، فستنقطع أنفاسك لدى قداستها ، وستملى عليك سياسة الجسم والروح الفردى ، وسياسة المعاملة والاندماج الاجتماعى ، وسياسة الوحدانية والإيمان الاعتقادى ، وكل ذلك مجتمعا يرى لامحالة فى النفس عاطفة الخير ، وينمى ملكات الفضيلة ، ويعصم الإنسان عن التفريط فيما يلزمه المحافظة عليه ، ولقد ألممنا آنفا ، بما يجنيه المرء على نفسه من ظلمها بهجر أركان الدين ، والانطراح تحت أنقاض الدنيا ، وفى الواقع أى ظلم سحيق ، يزجى إليه نفسه ، هذا الذى يجذب يده ممن سيرافقه إلى أعلامنازل البررة التقاة ، المفتحة لهم أبواب الجنان يدخلون من أيها شاءوا ويمدها لمن سيجره إلى هدم كيانه ، وفقد اعتباره ، ونبذه فى سواء السعير ومن البديه فقد يسوق ذلك إلى إلباس القبيح ثوب الحسن ، والتوغل فى أحراش الجرائم ، وإهمال التفكير فى تبعاتها الجسام .

فقد حلل القرآن الكريم نفسية من نبذوا آيات ربهم ظهريا ، تحليلا

كشف عما انتهوا إليه من تفكك أواصرهم الخلقية والأدبية ، وانحلال مقوماتهم الدينية . وتهتك عواطفهم الإنسانية ، وكانوا ضوارى فى قوام بشرى ، وشرور فى أجرام متحركة ، وقابلها من الناحية الأخرى بتحليل نفسية من عضوا بنواجذهم على اتباع تعاليم خالقهم ، أى يذكر القرآن المرء بآيات ربه ليسموا ، فيعرض عنها الشقى ، ويأبى إلا أن ينحط إلى حضيض السوائم وبئس ما ارتضاه لنفسه بديلا ، وساءت عقباه .

الحوائل التى تشل عقول الظالمين عن استشراف الهدى

إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ، وَفِى آذَانِهِمْ وَقْرًا(١)

ليس هذا افتراض منطقى ، أو تخييل لفظى ، وإنما هو تشخيص حالة قائمة بنفوس المنذرين ، يشبه حالات مرض عضال ، حارت فيه نطس الأطباء

ومن المحقق أن الكفر داء وبيل أول ماتظهر إصابته بالعقائد ـ وهى ملاك المقومات الإنسانية ـ فتدويها ، وبذلك تنهار بقية المعنويات الأخرى من تلقاء نفسها ، كتلك الأدواء الجسدية ، متى ساورت ميكروباتها عضواً تخاذلت بقية الأعضاء ، وتداعت له بالحمى والسهر ، ومن الحكمة الإلهية فى التركيب الإنسانى أن الأدواء المعنوية ، يتأثر بها الجسم ، وتكون باعثا على إدرائه ، كأن يزنى الزانى مثلا ، فيداء بمرض تناسلى خبيث ، أو يسرق

(١) « إنا جعلنا على قلوبهم أكنة » أغطية كثيرة ، جمع كنان ، وهو تعليل لاعراضهم ونسيانهم بأنهم مطبوع على قلوبهم « أن يفقهوه » اى منعناهم ان يتفوا على كنهه ـ اوكراهة ان يفقهوه ، « وفى آذانهم وقراً » اى جعلنا فيها ثقلا يمنعهم عن استماعه .